البحث السادس

حلم الدولة المدنية وأسس المدينة الفاضلة

لدى فرنسيس فتح الله مراش

(1835- 1873)

دكتور
عبد الله طه فرحات

ملخص البحث:

يعد الأديب العربي السوري فرنسيس فتح الله نصر الله مراش أحد أكثر المنورين العرب تأثيرا في ستينات القرن التاسع عشر، حيث كرس جهده وعمره لنشر الثقافة ومحاولة التنوير والدعوة لتطبيق المدنية في صورتها التي تحقق العدالة والمساواة وتكفل الخير للجميع ، ومن ثم صاغ حلمه نحو المدنية والتقدم في صورة مدينة فاضلة، صاغها في روايته غابة الحق في تفصيل الأخلاق الفاضلة التي صدرت في عام 1865 ويصنفها البعض بأنها أول رواية عربية في العصر الحديث. وما هي في حقيقتها سوى دراسة مفصلة لأسس الدولة المدنية كما ينبغي أن تكون عليه في الواقع العربي، وليس مجرد اقرار تعديلات شكلية في النظام العثماني.

وهو ما يدفعنا للبحث في فلسفة الحكم لدى المراش، وكيف صاغها في صورة حلم .. حلم نحو دولة التمدن، أو كما عبر هو عنها مملكة التمدن أو مملكة الحرية. ويدفعنا – كذلك– لنتناول فلسفة الحكم عند فرنسيس المراش، الاسلوب الفلسفي والأدبي الذي صاغ فيه أفكاره السياسية حتى جعلها من فرط مثاليتها تتشابه مع نظم المدن الفاضلة، إلى جانب ثوبها العربي الخالص الذي أضفاه المراش على نسق هذه المدينة، إلى جانب الطابع الفلسفي للرواية، واستخدامه أسلوب والمواربة والرمزية، وأيضا التحليل الفلسفي ورصد واقع الحياة في العالم العربي آنذاك. وما تميزت به من تقديم حلول عملية لمشاكل الحكم في الدولة العثمانية، وواقع البلاد العربية.

Abstract:

The Syrian Arab writer Francis Fathallah Nasrallah Marash is considered one of the most influential Arab enlighteners in the sixties of the nineteenth century. He devoted his efforts and his life to spreading culture, attempting enlightenment, and calling for the application of civilization in its form that achieves justice and equality and ensures good for all. Then he formulated his dream towards civilization and progress in The image of a virtuous city was formulated in his novel, The Forest of Truth, detailing virtuous morals, which was published in 1865 and is classified by some as the first Arab novel in the modern era. In reality, it is nothing but a detailed study of the foundations of the civil state as it should be in the Arab reality, and not merely approving formal amendments to the Ottoman system.

This is what prompts us to investigate Al-Marash's philosophy of governance, and how he formulated it in the form of a dream...a dream towards a state of urbanization, or as he expressed it, the kingdom of urbanization or the kingdom of freedom. It also prompts us to discuss the philosophy of governance according to Francis Al-Marrash, the philosophical and literary style in which he formulated his political ideas until he made them, out of their extreme idealism, similar to the systems of virtuous cities, in addition to the pure Arab dress that Al-Marrash added to the style of this city, in addition to the philosophical character of the novel, and its use. Style, equivocation and symbolism, as well as philosophical analysis and monitoring of the reality of life in the Arab world at that time. It was distinguished by its provision of practical solutions to the problems of governance in the Ottoman Empire and the reality of the Arab countries.

مقدمة:

عاش المجتمع العربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حالة امن الاضطراب السياسي والاجتماعي، تأكدت هذه الحالة في أعقاب الحملة الفرنسية على مصر، حيث بدأ يتكشف أمام العقل العربي عجز الدولة العثمانية عن تطوير نظم المجتمع والدولة، بل وحتى عن الدفاع عن الوحدة السياسية للمجتمع العربي الاسلامي الذي تزعم الدولة العثمانية قيادته، وكان للسنوات الثلاث التي قضاها الفرنسيون في مصر أثر بارز في تعليم المصريين، ثم العرب، النظم الحديثة في إدارة الشئون العامة وتنظيم هيئات الحكم، وبما يتفق مع أسس وطبيعة المجتمع في تلك الفترة.

وشيئا فشيئا تحجم النفوذ السياسي للسلطنة العثمانية التي ظلت لها الزعامة الروحية التي ادعتها بتأثير احتفاظ السلطان باللقب الديني البراق "الخليفة" ولم يبق لها من تأثير روحي إلا بقدر ما بقى من ملامح نظم الخلافة ذات الأصول العربية، ولن نقول الدينية، إذ قامت هذه الفكرة – العربية الخالصة– بدور سياسي وديني، كفل للسلطان العثماني أن يمارس زعامة سياسية ودينية على المسلمين في العالم، فلما رأى المثقفون نماذج أخرى للحكم والإدارة، هي أنسب لتحقيق المصلحة التي من أجلها شرع الحكم ووجدت الحكومة، ولمسوا ما تؤدي إليه من حسن أداء للوظائف العامة وللنظام، وقدر ما توفره من مشاركة في الحياة السياسية وما لها من آثار في الحياة الاجتماعية، كان عليهم أن يتساءلوا عن حقيقة ما تقوم به فكرة الدولة الدينية (الخلافة) من تحقيق لغايات الاجتماع السياسي، وهل حقا أن ذلك النظام الذي أقرته الدولة العثمانية في تركيا هو نظام إسلامي (ديني)، أم أنه نظام سياسي متحجر، أصبح لا يحقق الغاية التي من أجلها شرع النظام وشرع الحكم في كل مجتمع، فبات وسيلة للاستبداد والقهر والظلم، وليس لتحقيق العدالة والتضامن الاجتماعي بين أطياف وأفراد المجتمع.

بدأ هذا الاتجاه في صورة النزاع السياسي الذي دار بين محمد علي والي مصر والدولة العثمانية، والذي كاد أن يقضي علي هذه الأخيرة لولا تدخل الدول الأوروبية ومن ثم تحجيم المشروع المصري.[673] ثم بدأ في الظهور على

([673]) كان أول توثيق لظهور هذه الحالة في شأن الصراع السياسي بين محمد علي والدولة العثمانية، في أحدى الرسائل التي بعث بها إبراهيم باشا(قائد الجيوش المصري) إلى والده الوالي محمد علي باشا، منتقدا سياسة والده المترددة في شأن غذو عقر دار الدولة العثمانية والقضاء عليها، حيث كتب يقول لوالده: **"يا والدي... منذ عشرين يوما أبحت لي إعلان سقوط السلطان والآن تحرمه، على أنه مهما كانت فائدة الرجوع وتغيير الرأي من جانبنا لا يجوز لنا أن ننسى أن جيشا قويا باسلا مثل جيشنا لا يحتمل سياسة التردد وجس النبض، وهي السياسة التي لا تعرف الانتفاع من وراء الواقع على أن هذا الجيش لا يستطيع الوقوف طويلا مكتوف الأيدي ونحن ذهبنا اتباعا لأوامرك، لقد أمرتني قبل الآن أن أقف في حلب، ثم سمحت لي بالتقدم إلى قونية، فدعنا الآن يا والدي نهزم جيش العدو الأعظم."** ورغم تردد محمد علي ، واتجاه محمد رشيد باشا (الصدر الأعظم) على رأس جيش لملاقاة إبراهيم باشا، إلا أن الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا استطاع هزيمة الجيش التركي وأسر قائده الصدر الأعظم رشيد باشا، وقد ذكر البعض أن إبراهيم باشا ومحمد رشيد باشا

مستوى النشاط الثقافي والتنويري الذي قام به المثقفون والمنورون العرب في تلك المرحلة الفاصلة من تاريخ الأمة العربية.

ويعد الأديب العربي السوري فرنسيس فتح الله نصر الله مراش أحد أكثر المنورين العرب تأثيرا في ستينات القرن التاسع عشر، حيث كرس جهده وعمره لنشر الثقافة ومحاولة التنوير والدعوة لتطبيق المدنية في صورتها التي تحقق العدالة والمساواة وتكفل الخير للجميع ، ومن ثم صاغ حلمه نحو المدنية والتقدم في صورة مدينة فاضلة، صاغها في روايته غابة الحق في تفصيل الأخلاق الفاضلة التي صدرت في عام 1865. وما هي في حقيقتها سوى دراسة مفصلة لأسس الدولة المدنية كما ينبغي أن تكون عليه في الواقع العربي، وليس مجرد اقرار تعديلات شكلية في النظام العثماني.

وهو ما يدفعنا للبحث في فلسفة الحكم لدى المراش، وكيف صاغها في صورة حلم .. حلم نحو دولة التمدن، أو كما عبر هو عنها مملكة التمدن أو مملكة الحرية. ويدفعنا –كذلك– لتناول فلسفة الحكم عند فرنسيس المراش، والاسلوب الفلسفي والأدبي الذي صاغ به أفكاره السياسية حتى جعلها من فرط مثاليتها تتشابه مع نظم المدن الفاضلة، إلى جانب ثوبها العربي الخالص الذي أضفاه المراش على نسق هذه المدينة، إلى جانب الطابع الفلسفي للرواية، واستخدامه أسلوب والمواربة والرمزية، وأيضا التحليل الفلسفي ورصد واقع الحياة في العالم العربي آنذاك. وما تميزت به من تقديم حلول عملية لمشاكل الحكم في الدولة العثمانية، وواقع البلاد العربية.

وقد صنفت رواية غابة الحق كأول رواية عربية في العصر الحديث، وترجع أهميتها العلمية لما تحمله من دعوة لإعلاء مبادئ الحرية، تأثرا بنتائج الثورة الأمريكية. وبنتائج التنوير الأوروبي خاصة في فرنسا وانجلترا، خاصة أفكار جون لوك، وجيرمي بنتام، وجان جاك روسو، وغيرهم. فكان حلم الحرية والعدالة هو المسيطر على الرواية. فهل حقا كان المراش يقدم نصيحة لتعديل النظام ليتوافق مع أسس المدنية الحديثة ومن ثم يحقق العدالة؟ أم أنه كان مجرد فيلسوف يصوغ تصور عن مدينة فاضلة لا سبيل لتحققها في دنيا الواقع؟. أم أن المراش كان مجرد مثقف حالم، وسجل أحلامه السياسية التي ظهرت لنا في صورة يوتوبيا عربية خالصة.؟

الذي وقع في الأسر قد اتفقا على خلع السلطان محمود الثاني وتعيين ابنه عبدالمجيد الثاني بدلا منه. فكتب إبراهيم باشا إلى والده: **"أستطيع أن أصل إلى الأستانة ومعي محمد رشيد باشا، وأستطيع خلع السلطان حالا، وبدون صعوبة لكنني مضطر لأن أعرف هل تسمح لي بتنفيذ هذه الخطة حتى أتخذ الوسائل اللازمة. لأن مسألتنا لن تسوى إلا في اسطنبول.. فالواجب أن نذهب إليها حتى نملي إرادتنا..."** راجع نصوص هذه الرسائل لدى : محسن عبدالعزيز: ليل الخلافة العثمانية الطويل، سيرة القتل المنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 2022 ، ص 77 – 80 .

سنعتمد بلا شك في هذه الدراسة على رواية فرنسيس المراش: "غابة الحق في تفصيل الأخلاق الفاضلة" والدراسات الأدبية التي تناولتها. وندعو الله أن يوفقنا لإتمام هذه الدراسة لتظهر بالصورة التي توضح نبوغ هذا الفيلسوف الذي عاجلته المنية قبل أن يتم عقده الرابع، وغفل فقهاء السياسية وفلسفة القانون عن كتاباته.

وعلى الرغم من أن الإصدار الأول لرواية "غابة الحق" كان قبل ما يزيد عن مئة وخمسين عاما، إلا أنه مازال يحتفظ بمضمونه، وحرارته، كونه يشكل دليل عمل، ووثيقة تعتمد لما يجب أن يكون عليه رجل الدين، والفيلسوف، وأهم من كل ذلك، كيف يجب أن يكون رجل السياسة، والأصح القول، الحاكم أو رجل الدولة، وما هي مواصفات هؤلاء الذين يمتلكون الجدارة بالحكم، وإدارة المجتمع، وكيف يجب أن يحافظوا على هذا المجتمع، أو الدولة وذلك بتطبيق العدالة والمساواة والإخاء...[674]

منهج الدراسة:

سنعتمد في هذه الدراسة على منهج تحليلي وصفي للوقوف على حقيقة أفكار فرنسيس المراش، ورؤيته لأسس التمدن ونظم المدينة الفاضلة. مع الاعتماد على نصوص رواية غابة الحق التي وصف فيها المراش نظم مدينته الفاضلة، وأسس التمدن التي دعا إليها.

تقسيم الدراسة: سنقسم هذه الدراسة إلى مبحث تمهيدي وفصلين ، كالتالي:

مبحث تمهيدي : المراش وإشكالية التنوير والمدنية في الفكر العربي في القرن 19.

المطلب الأول: إشكالية التنوير والمدنية في الفكر العربي في القرن 19.

المطلب الثاني : المراش ، حياته ومؤلفاته.

المطلب الثالث: الخلفية التاريخية لكتابة رواية غابة الحق.

الفصل الأول: حلم التمدن لدى المراش.

المبحث الأول: حلم الدولة المدنية.

([674]) مالك صقور : غابة الحق ، مقال منشور بمجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، مج 45 / ع538 ، فبراير 2016

المبحث الثاني : أنواع الممالك لدى المراش.

الفصل الثاني: أسس المدينة الفاضلة.

المبحث الأول : العقل و السياسة

المبحث الثاني: الأخلاق والمحبة.

المبحث الثالث: سبل إصلاح المدينة.

مبحث تمهيدي

المراش ، وإشكالية التنزير في الفكر العربي في القرن 19

نتناول في هذا المبحث إشكالية المدنية في الفكر العربي في القرن التاسع عشر، ثم نستعرض حياة المراش، و البيئة التي نشأ فيها ومؤلفاته، ونختم بالحديث عن الكتاب موضوع هذه الدراسة ، وهو غابة الحق في تفصيل الأخلاق الفاضلة، ونحاول بيان الخلفية التاريخية لكتابة هذه الرواية. وسوف نتناول كل موضع منها في مطلب مستقل.

المطلب الأول

إشكالية التنوير والمدنية في الفكر العربي في القرن التاسع عشر

منذ منتصف القرن التاسع عشر بدأ دور المثقفين العرب في الظهور بل والسيطرة على مجال الفكر والثقافة في الشرق، خاصة مع عجز المثقفين الأتراك عن إحداث ثمة أثر في نظم الدولة العثمانية يقودها نحو المدنية. وظل جميع ما قامت به الدولة العثمانية في شأن تمدن نظمها أو برجزتها – وهي الكلمة التي كانت تستخدم للتعبير عن ذلك– مجرد إرضاء للضغوط الأوروبية ولمسايرة متطلبات السوق الأوروبية. ولم يكن ذلك عن رغبة حقيقية من الدولة العثمانية لتطوير نظمها[675]، خاصة النظم العسكرية حتى يتثنى لها حماية مصالحها من الهجمات الأوروبية.[676] إذ بقى كل ما أقرته الحكومة العثمانية حبرا على ورق، فباتت دولة تعيش بفكر القرون الوسطى وفي الوقت ذاته تتجمل ليحسبها الغرب الأوروبي دولة مدنية حديثة.

([675]) يذكر أن السلطان العثماني الذي وقع مراسيم التنظيمات كان مصلحا رغم أنفه، وعلى حد قول المستشرق السوفيتي لوتسكي، أنه وقع على البيان مكرها ولم يتحرج من ابداء استيائه من الإصلاحات المرسومة، بل وكان يعتبر التنظيمات دوما تنازلات وافق عليها خلافا لإرادته، وحالما كانت تتاح له الفرصة كان يعمل كل ما في وسعه لعرقلة تنفيذها. انظر : جمال باروت: حركة التنوير العربية في القرن التاسع عشر، حلقت حلب، دراسة ومختارات، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق، 1994، ص 9- 10 .

([676]) كانت السلطنة تعاني من هجمات على الجبهات العسكرية في أوروبا الشرقية تقودها روسيا القيصرية. وأدى الخوف من انهيار النفوذ العثماني في أوروبا الشرقية إلى اعطاء أولوية للجيش. فالجيش هو الحل. وعلى هذا اتخذ السلاطين سلسلة قرارات فوقية ركزت على فكرة تحديث المؤسسة العسكرية وتأمين كل المتطلبات والمستلزمات الضرورية لتنفيذ مهمة الدفاع عن الحدود. تحديث القوة أدخل السلطنة في سياسة عسكرة الاقتصاد التي ساعدت على تنمية القدرات السياسية للجيش ورفعت في الآن من نسبة تدخله في الحياة المدنية للناس الأمر الذي مهد الطريق لحصول مواجهات أهلية بين نخبة عسكرية وشبكات المجتمع التقليدي. انظر: وليد نويهض : إشكالية الفكر العربي في القرن التاسع عشر، مقال منشور بموقع مجلة الوسط أونلاين، العدد 1715 - الخميس 17 مايو 2007م الموافق 29 ربيع الثاني 1428هـ، رابط" http://www.alwasatnews.com/news/232476.html

هذا التناقض الرهيب بين أسس الفكر السياسي ومتطلبات الواقع واسلوب مسايرة هذا الواقع، دفع العديد من مثقفي القرن التاسع عشر الذين حملوا لواء التنوير للعمل نحو إرساء دعائم دولة مدنية، ذلك الحلم الذي ظلوا عقود عديدة يناضلون من أجله إلى أن تأكد لهم فساد نظام الإمبراطورية أو نظام السلطنة الذي يعتمد على الهالة الدينية – والتي يعكسها لقب خليفة– التي احاط السلطان العثماني نفسه بها، ليضمن لنفسه أساسا دينيا يحميه من الخروج عليه، أو الانتقاص من سلطاته السياسية؛ وظل الصراع بين الحكومة العثمانية والمنورين العثمانيين(الأتراك)[677] والعرب دائرا، إلى أن زالت الدولة العثمانية بأسرها.

وقد ظهرت في خضم الصراع الذي دار بين الحكومة العثمانية من جانب والتنويريين العثمانيين والتنويريين العرب من جانب آخر، أصالة الفكر العربي وقدرته على صياغة نظريات سياسية واجتماعية تتناول إشكالية المدنية، والسبيل لتحقيقها، أو بمعنى أدق تطبيقها في المجتمع العربي، دون الخروج على الحكومة العثمانية، وإنما عن طريق تقديم الحلول، والتنبيه عن مواضع الخلل في النظام السائد. وكان هناك نموذج يظهر للقاصي والداني في بلاد الشرق العربي يمثل تجربة تحديث للدولة، يتمثل في تجربة تحديث الدولة التي قام بها محمد علي باشا في مصر، والتي كان لها تأثير بالغ على فكرة المدنية لدى المنورين العرب الذين استفادوا منها.[678] ونخصص الفقرة القادمة

([677]) كان انطلاق المثقفين والمنورين العثمانيين في القرن التاسع عشر يبدأ من فكرة وحدة الدولة متعددة القوميات والأديان واستقلالها الوطني على أساس الرابطة الوطنية العثمانية التي يتساوى في إطارها جميع المواطنين بغض النظر عن الدين أو الجنس أو اللغة . ونظر المنورون الشباب إلى البرجوازية الناشئة على أنها حاملا موضوعيا لذلك فشجعوها ودعوا بحماس لتعزيز دورها، والنظر إلى مصالح تطورها على أنها مصالح الخير العام للسلطنة العثمانية بأسرها. وسميت هذه النزعة بالنزعة العثمانية الجديدة . ومثلت جمعية :"العثمانيين الجدد" التي تشكلت عام 1865 من بين المثقفين المتحمسين للتنظيمات . وتشكل برنامجها على ثلاث نقاط: (1) تحويل السلطنة إلى ملكية دستورية برلمانية. (2) تطوير الثقافة البرجوازية. (3) محاربة النمط العثماني القديم للحياة والمعيشة وتطوير البرجوازية الوطنية.

وقد قامت الحكومة العثمانية باضطهاد أعضاء هذه الجمعية واضطر بعضهم للهجرة إلى أوروبا هربا من الاجراءات القمعية التي قامت بها الحكومة العثمانية لمحاصرة نشاطهم، والحد منه. وفي المنفى استمر نشاط العثمانيين الجدد ، فأصدر على عسافي صحيفة المخبر في لندن سنة 1868 م، وأصدر آخرون جريدة الحرية ما بين أعوام 1869 – 1870 م ، واهتموا بترجمة أعمال المنورين الفرنسيين في القرن الثامن عشر مثل فولتير ومنتسكيو، وروسو، وكوندورسية، وقاموا بنشرها على نطاق واسع. وقاموا أيضا بترجمة أعمال الرواد العرب أمثال رفاعة الطهطاوي وخير الدين تونسي إلى اللغة التركية، ونشرها هناك. أنظر، جمال باروت: المرجع السابق، ص 11- 12.

([678]) تبع محمد علي خطة للتحديث كانت ملامحها تتمثل في : تأسيس قواعد للدولة تنافس الشبكات الأهلية وموقع الأزهر العلمي. إرسال بعثات للدراسة في الخارج أشهرها كانت البعثة التي ترأسها رفاعة الطهطاوي. إقامة علاقات مع مؤسسات أوروبية مدنية تملك نظريات حديثة في تطوير علاقات الاجتماع والاقتصاد (حركة سان سيمون الاشتراكية المثالية). إعادة توظيف المتخرجين من الجامعات الأوروبية في مواقع الدولة ومؤسساتها التصنيعية والإدارية والتربوبية. تأهيل الجيش المصري وتجهيزه بالأسلحة الحديثة ليكون في موقع القوي والقادر على الدفاع وثم الهجوم (أسطول بحري، قوات برية) لتوسيع دائرة نفوذ الدولة في الجزيرة والسودان واليمن والبحر الأحمر. تحسين العلاقات مع أوروبا لكسب الخبرات والخبراء وعدم تعطيل التواصل التقليدي بين مصر والسلطنة العثمانية.

ويذكر أن السلطان محمود الثاني (توفي 1839) اتبع ذات الطريقة التي اتبعها محمد علي وأخذ يكيّف السلطنة وفق النموذج التحديثي المصري. فلجأ إلى عسكرة الاقتصاد وتنفيذ مذبحة ضد جيش الانكشارية، وأرسل بعثات تعليمية إلى جامعات أوروبا واستقدم خبراء لبناء هياكل إدارية للدولة ومصانع حربية لإعادة تأهيل القوات البحرية والبرية. انظر: وليد نويهض : إشكالية الفكر العربي في القرن التاسع عشر، مقال منشور بموقع مجلة الوسط أونلاين ، العدد 1715 - الخميس 17 مايو 2007م الموافق 29 ربيع الثاني 1428هـ ، رابط " http://www.alwasatnews.com/news/232476.html

للحديث عن مشروع تحديث الدولة المصرية الذي قام به محمد علي باشا، ليتضح لنا أثر ذلك في فكر المنورين العرب.

محمد علي ومشروع تحديث الدولة المصرية :

بعد أن تمكن محمد علي باشا من تولي حكم مصر باسم الدولة العثمانية، استطاع أن يستقل بشئونها ويبدأ في إقامة دولة مصرية على أسس ونظم حديثة، امتدت في عصره لتشمل السودان والشام والجزيرة العربية إلى جانب مصر. واعتمد في إعادة هيكلة الدولة على عدة إصلاحات شكلت على حد قول البعض[679] تحديثا – وليس حداثة– لم يسبق له نظير في مصر أو في الدولة العثمانية ذاتها، وتمثلت هذه الاصلاحات في الآتي:

1- **إصلاح الجيش لحماية استقلال البلاد،** وكانت أهم الإصلاحات التي أقرها محمد علي باشا في نظم الجيش المصري تتمثل في: إعادة تكوينه وتدريبه على نمط الجيوش الأوروبية الحديثة. وإقرار مبدأ التجنيد الإجباري، وضم للجيش المصريين والسوريين إلى جانب الألبان. والاهتمام بالأسطول البحري لمواجهة الحملات الأوروبية في البحر المتوسط. وإنشاء المصانع الحربية، ومصانع لبناء السفن.

2- **النهوض بالاقتصاد لتحقيق الاكتفاء الذاتي وتنشيط الصادرات،** وقد تحملت الدولة أداء هذه المهمة وذلك لغياب البرجوازية المصرية القادرة على تحمل تلك المسئولية في تلك الفترة.

3- **الاهتمام بإصلاح نظام ري الأراضي الزراعية،** فأقام السدود والقنوات واهتم بتوزيع المياه ، واهتم بالمحاصيل الاقتصادية وفي مقدمتها القطن.

4- **الاهتمام بالصناعة،** فشيد مصانع الأسلحة والسفن، بالإضافة إلى الصناعات العسكرية، وصناعة السكر والورق وغيرها.

5- **إرساء دعائم التعليم الحديث،** حيث بدا التجربة في المدارس العسكرية، ثم شملت مراحل التعليم العام الابتدائي والثانوي على غرار الدول الأوروبية المتقدمة.

([679]) د/ عبدالمالك خلف التميمي : الحداثة والتحديث في دول الخليج العربية منذ منتصف القرن العشرين، عالم المعرفة ، الكويت ديسمبر 2018، ص 43

6- **أنشأ المعاهد العليا لتخريج الأطباء والمهندسين والمختصين في الإدارة والقانون.** وبدأت في ذلك العهد الترجمة من اللغات الأجنبية الأوروبية إلى اللغة العربية، كما سعى إلى إرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا لدراسة مختلف العلوم والتخصصات، وكان لتطور التعليم في عصره تأثير جوهري في الثقافة بمصر التي انفتحت على حضارة الغرب ودعمها إنشاء دار الطباعة في عام 1822م وبدأت الصحافة تصدر في عهده، وفي مقدمتها جريدة الوقائع المصرية في عام 1828م التي كان لها دور ريادي في دعم النشاط الثقافي والفكري في مصر.[680]

ورغم طموح مشروع تحديث الدولة المصري الذي بدأه محمد علي باشا، إلا أن هذا المشروع قد تعثر بعده، حتى أن بعض الكتاب قد ذكروا أنه قد آل إلى الفشل بعد وفاته نتيجة عدة أسباب أهمها أن خطة التحديث كانت دون حداثة ترتكز على رؤية استراتيجية. ولهذا فشل مشروع محمد علي بعد وفاته ودخلت مصر نفقا مظلما بسبب الديون التي أدت بها إلى الوقوع تحت وطأة الاستعمار الذي تحكم في مصائرها. وهو ما يؤكد أن الحفاظ على التحديث واستمراره يتطلب فكرا مستقبليا بعيد المدى.[681]

وقد كان لتجربة محمد علي أثر واضح في فكر المثقفين ودعاة التنوير العرب، فمنذ منتصف القرن التاسع عشر تمركز الخطاب التنويري العربي حول إشكالية "المدنية"، خاصة مع اصطباغ المجتمع العربي في تلك الفترة بطابع الاستبدادية. فبدأت مصطلحات عديدة تتردد في حياة التنويريين والمثقفين العرب مثل: " التمدن – التنوير– الحرية – المحبة – الحق الطبيعي– المساواة ...الى غير ذلك من المصطلحات والكلمات التنويرية التي تجد مرجعيتها في الخطاب التنويري الفرنسي في القرن الثامن عشر .[682]

وبدون شك تأثر الكتاب العرب في تلك الفترة بخطاب التنوير الفرنسي[683] خاصة مع تلقي أغلبهم دراسته إما في فرنسا أو على أيدي أساتذة فرنسيين قدموا إلى الشرق، بتأثير التقدم الحضاري الذي حدث في بعض البلدان العربية

([680]) انظر: د/ عبدالمالك خلف التميمي : الحداثة والتحديث في دول الخليج العربية منذ منتصف القرن العشرين، عالم المعرفة ، الكويت ديسمبر 2018، ص 43 – 44.

([681]) المرجع السابق، ص 45.

([682]) انظر : جمال باروت : حركة التنوير العربية في القرن التاسع عشر، حلقت حلب، دراسة ومختارات، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق، 1994، ص 7.

([683]) نذكر في هذا المقام أن نابليون بونابرت كان قد حاول أثناء حملته على مصر تعويد الأعيان المصريين على الحياة السياسية وأفكار مجالس وهيئات الحكم، فدعا في أكتوبر 1789 إلى اجتماع عام للأعيان أطلق عليه اسم الديوان العام، وفي 21 ديسمبر من ذات العام أصدر مرسوما بإعادة تنظيم هذا المجلس إلى نوعين:

1) الديوان العمومي: يتكون من 60 عضوا يختارون من بين الأعيان ويمثلون مختلف الطبقات.

والسياسة التعليمة التي كان ينتهجها الوالي محمد على باشا حاكم مصر والذي استطاع أن يمد سلطانه إلى عقر الدولة العثمانية ذاتها، واعتماده بصورة أساسية في نهضته الحديثة على التعليم وتحديث الجيش، حتى تم تحجيم نفوذه بموجب معاهدة لندن سنة 1840، ورغم حرمان محمد على من حكم سوريا إلا أن النهضة التعليمية التي بدأها في مصر امتدت آثارها لبلاد الشام سواء أثناء حكم محمد على لها أم بعد خروجها عن سيطرته بموجب معاهدة لندن.[684]

فقد أكد بعض المؤرخين أن تأثير حكم محمد علي في سوريا لم يضع بعد انسحاب الجيش المصري، لأنها أحدثت انقلابا عظيما في نظام الحكم وأدخلت أنظمة في الإدارة والقضاء والجندية، وكان لذلك تأثيرات جمة في حياة البلاد الاجتماعية والأدبية والاقتصادية والسياسية.[685] وقد أثمرت جهود محمد علي في التعليم وبرزت في نهاية عصره وعصور خلفاؤه خاصة في عهد سعيد باشا والخديوي إسماعيل، فكان من أشهر العلماء المصريين الذين حملوا لواء التنوير في تلك الفترة للأمة العربية – وكان لهم عظيم الأثر على المثقفين العرب خاصة في مصر وبلاد الشام– الشيخ حسن العطار (1766– 1835) والشيخ/ رفاعة الطهطاوي (1801– 1873). ومن الشام نذكر: أمين شميل وناصيف المعلوف(1823 – 1865)[686]

---

2) الديوان المخصوص ويتكون من 14 عضوا ينتخبهم الديوان العمومي ويجتمعون كل يوم.

وقد شهدت الحياة السياسية في مصر في أعقاب ذلك تطورا ملحوظا ، خاصة بعد إقرار النظام النيابي وتعود المصريين على أسلوب المواجهة على المستويين السياسي(بالمجالس النيابية) والشعبي (بالثورة على المحتل الفرنسي) . وبالإجمال – وكما يؤكد البعض- أن بذور النظام النيابي التي أدخلتها الحملة الفرنسية قد لقيت الإهتمام والتأييد من جانب الفكر السياسي والاجتماعي في ذلك العصر. ويلاحظ أن استمرار تأثير ذلك بوضوح في الفكر السياسي في القرن التاسع عشر، وإن لجأ محمد علي باشا إلى السيطرة على مقاليد الحكم ، إلا أنه لم يلبث إلا أن اعاد المؤسسات للحياة السياسية المصرية، فأنشأ في عام 1829 م "مجلس الشورة" يتكون من 156 عضوا منهم 23 من كبار الموظفين والعلماء، و 24 عضوا من مأموري الأقاليم، و99 من الأعيان وشيوخ الأقاليم، وتولى رئاسة هذا المجلس إبراهيم باشا، وكان دور هذا المجلس استشاريا لاسيما في مجالات الإدارة والتعليم والشئون العامة. راجع: د/ أنور عبدالملك: نهضة مصر – تكون الفكر والأيديولوجية في نهضة مصر الوطنية (1805 – 1892) ، ترجمة : د/ حمادة إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة 2013 ، ص 328 – 330.

([684]) على هذا الأساس التاريخي تشكلت قواعد الفكر العربي في القرن التاسع عشر. فظهرت نظريات قومية غير مكتملة في هويتها السياسية وشروطها الاجتماعية، ونظريات إصلاحية غير واضحة في رؤيتها للدولة البديلة أو لعلاقة الدولة بالإسلام. وهذه الإشكالية يمكن قراءة الكثير من فصولها في أدبيات «النخبة الشامية» سواء في كتابات الشدياق (كاثوليكي ماروني اعتنق الإسلام) والبستاني (كاثوليكي ماروني اعتنق المذهب الإنجيلي البروتستنتي) أو الكواكبي لاحقا. وساهمت هذه الإشكاليات في خلخلة أسس الوعي التاريخي وعدم وضوح الرؤية. فالحداثة تحولت إلى جزر طائفية ومذهبية تتجاذبها السياسة. والسياسة وقعت أسيرة التجاذب الأهلي الذي منع الحداثة من التحول إلى قوة اجتماعية قادرة على قيادة التقدم. انظر: وليد نويهض: إشكالية الفكر العربي في القرن التاسع عشر، مقال منشور بموقع مجلة الوسط أونلاين ، العدد 1715 - الخميس 17 مايو 2007م الموافق 29 ربيع الثاني 1428هـ،رابط " http://www.alwasatnews.com/news/232476.html

([685]) انظر: محسن عبدالعزيز: ليل الخلافة العثمانية الطويل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2021، ص 82.

([686]) عمل ناصيف معلوف: أستاذ اللغات الشرقية، وعضو الجمعية الآسيوية في باريس، ووضع التآليف الكثيرة بالتركية والعربية والفارسية والفرنسية وغيرها قامت بنشرها جمعية العلوم والآداب الملكية في الأستانة ، وله العديد من المؤلفات بلغات عديدة منها العربية

ونشير إلى محورية تأثير الدور الذي قام به الشيخ رفاعة الطهطاوي على الفكر العربي خاصة مجهوداته في ترجمة العديد من الكتب والروايات السياسية عن لغتها الفرنسية إلى اللغة العربية. ونخصص الفقرة التالية لإبراز جهود الطهطاوي التنويرية في مصر التي تزامنت مع جهود فرنسيس المراش في الشام.

جهود رفاعة الطهطاوي التنويرية:

هناك عملان للطهطاوي يجب أن نشير إليهما وإلى مجهوداته في ترجمتهما، لما كان لهما من أثر في الحياة الثقافية والسياسية العربية في القرن التاسع عشر.

الأول: هو إقدام رفاعة على ترجمة الميثاق الذي أصدره لويس الثامن عشر[687]، وعلق عليه في **كتابه تلخيص الإبريز**؛ وأعجب بأسلوب تنظيم العلاقات بين سلطات الدولة والمواطنين كمسألة غير معلومة لدى الأمة العربية والإسلامية، رغم أن ذلك الميثاق كان نتاج جهد إنساني يقوم على أساس الفكر السياسي لا على أساس أحكام التشريع الديني، حددت فيه حقوق كل سكان المملكة وواجباتهم. ولكي يكون كلامه مستساغا ومفهوما لدى قرائه من العرب استخدم الطهطاوي مصطلح الشورى بدلا من مجلس النواب، مع أن التمثيل البرلماني الغربي لم يسبق له مثيل في الفكر السياسي الإسلامي، ولكن أراد الكاتب أن يقنع مواطنيه بأن النظام السياسي القائم في الغرب ليس غريبا عن النظام السياسي في الإسلام.[688] فيقول معلقا على مبدأ مساواة الجميع أمام القانون (المادة الأولى من الميثاق):" لها تسلط عظيم على إقامة العدل وإضعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم ، نظرا إلى إجراء الأحكام (...) وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف" وفي تعليقه على مبدأ حق كل مواطن في تولي المناصب العامة (المادة 3) يقول: هو يقترب من شريعة قدماء القبطة التي كانت تعين لكل إنسان صنعته ثم يجعلونها متوارثة عنه لأولاده"[689]

الثاني: رواية "**مغامرات تليماك**" للكاتب الفرنسي فنلون(1651- 1715) وهي رواية سياسية تهدف إلى تنوير أولي الأمر، وتثقيفهم بأصول الحكم العادل، وقد ترجم رفاعة هذه الرواية حين نفاه والي مصر عباس حلمي الأول[690]

والإنجليزية والفرنسية والتركية، ذكر جورجي زيدان 27 مؤلفا منها. انظر ترجمته ومؤلفاته لدى: جورجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق ..، مرجع سابق، ص 87 – 93.

(687) هو الدستوري الفرنسي الصادر في باريس في 04 يوليه 1814 .

(688) عادل النفاتي: نظام الحكم الفرنسي من منظور رواد النهضة العربية، مجلة انثروبولوجيا، ع 4،ص 188.

(689) راجع: رفاعة الطهطاوي : تلخيص الإبريز . د/ أنور عبدالملك : المرجع السابق، ص 330 – 331.

(690) حكم مصر الفترة من 1848 إلى 1854

إلى السودان.[691] فاستغل الوقت في الترجمة، واستغل الترجمة في بث آرائه عن الحكم العادل ضمن النص المترجم. وتخفى وراء النص المترجم ليبث أفكار الحرية والعدل، وهو تحت قناع منظور المربي تليماك ورفيقه في رحلاته.[692] وبلا شك أبدع الطهطاوي في ترجمته لهذه الرواية بعدما أهاجته قيم الحرية والعدالة والمساواة تلك القيم التي رفعتها الثورة الفرنسية، وبقدر تمثله لهذه القيم واسترجاعه تراثه العربي الإسلامي الذي يتجاوب معها، صاغ نشيد المارسلييز الفرنسي– الذي تهدم على وقع إيقاعه سجن الباستيل – في صياغة عربية تومئ إلى نظائر الطغيان، في كل مكان.[693] وبلا شك كانت لمجهودات رفاعة الطهطاوي أثر بالغ في نفس وفكر وتوجه المثقفين العرب في تلك الفترة التاريخية الهامة.

وقد رأينا كيف بدأ رفاعة التنوير بالترجمة واتخذها وسيلة يقول فيها على لسان أبطال الروايات ما يحمله من معاني التنوير والتجديد، ويرسم سبلا للكفاح نحو إعلاء قيم الحرية والمساواة والعدل، تلك القيم التي لها تاريخها وقدرها في الفكر العربي الإسلامي، والذي كان يشكل أساس الفارق بين تمدن مصر الحديثة بعد أن بدأت تجني ثمار مشروع التعليم الذي بدأه محمد علي باشا، وبين تردي أوضاع الدولة العثمانية في تركيا ومحاولتها اللحاق بالركب عن طريق الإصلاحات الشكلية في النظام، مع عدم قدرتها على الاعتماد على الفكر والعلم، وتفضيلها الاعتماد على هالة القداسة التي أحاط السلطان العثماني نفسه بها ليدرأ عنه محاولات التجديد.. تلك السياسية الفاشلة

([691]) تم نفي رفاعة الطهطاوي إلى السودان لمدة تزيد عن الثلاث سنوات من سنة 1850 إلى سنة 1853.

([692]) انظر: د/ جابر عصفور : من أعلام التنوير، طبعة مكتبة الأسرة ومهرجان القراءة للجميع، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1995 ، ص 10 – 12. فورد في الترجمة: "ما أسعد الأمة التي يحكمها ملك عاقل، وسلطان عادل تعيش في الرخاء والكرم والسخاء، وتكون سعيدة مرتاحة ، وتحب دوام ملكه إذ هو السبب في الراحة، يا تليماك: إذا ساعدتك المقادير بالتولية على ملك أبيك، فاحكم هكذا، وأدخل السرور على الرعية، وأحبهم كأنهم عيالك، لتحظى بكونهم أيضا يحبونك، وعاملهم حسن المعاملة بحيث يفهمون أن هذا بحسن تدبيرك وبقصد الراحة والمحبة لهم.... فالملوك الطغاة التي لا تشتغل إلا بالتخويف والإرهاب وهضم رعاياهم بقصد الإطاعة ومنع الارتياب. هم كناية عن طاعون ووباء يهلك بهم الناس ويضيعون هباء"

([693]) وتقول في أوضح بيان:

إلهي، كيف يقهرنا ملوك بسبل العدل ليس لهم سلوك
وأنذال للاستعباد حيكوا وما في الفخر يشركنا شريك
ولا أحد به أبدا حريا
عليكم بالسلاح أيا أهالي ونظم صفوفكم مثل اللآلي
وخوضوا في دماء أولى الوبال فهم أعداؤكم في كل حال
وجورهم غدا فيكم جليا بنا خوضوا دماء أولى الوبال

وهكذا صاغ رفاعة الطهطاوي القصيدة بالعربية ليحملها معان عربية أصيلة حتي يحسب القارئ لها أنها من نبت أفكار شاعر عربي هاجت مشاعره في خضم خطبة ثورية ضد معان الظلم والطغيان. وقد علق الأستاذ جابر عصفور على هذه الأبيات وغيرها مما صاغ الطهطاوي نظمها المترجم للعربية، فقال: "إن النظم الفرنسي ينقلب إلى لسان عربي مبين في أمثال هذه الأبيات واللسان العربي المبين يتوسل بالنص المترجم ويخفي تحته مطامحه الحقيقية إلى الحرية والعدل. هكذا يتخفى رفاعة المعلم المنفي إلى السودان تحت قناع منظور مربي تليماك ورفيقه في رحلته." انظر: د/ جابر عصفور: من أعلام التنوير، مكتبة الأسرة ومهرجان القراءة للجميع، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1995 ، ص 11.

التي اسفرت بعد ذلك عن انقلاب علماني صرف فصل كل ما له علاقة بالدين عن حياة وواقع القانون والسياسة، وأودى بدولة العثمانيين الذين ظنوا أن اطلاق لفظ "خلافة" عليها يكفي لحماية عروشهم من كل نقد، فأسرفوا في اضطهاد المنورين والمثقفين ودعاة التمدن.

تساهم هذه النظرة في فهم حقيقة سياسة الحكومة العثمانية تجاه المنورين وفي فهم الاسلوب الذي لجأوا إليه لشحذ الجهود وتوجيه العقول والأنظار نحو اللحاق بركب المدنية والتحضر. وهو ما يفسر أيضا كيف أثمر الفكر العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والقرن العشرين عن أدباء وعلماء ومثقفين وسياسيين كان لهم دورهم المهم في جعل تفاعل واقع الثقافة العربية مع مقتضيات وواقع الأمة العربية التي أدت سياسة الدولة لعثمانية إلى اضعافها ووقوعها تحت براثن الاحتلال الأجنبي من جانب، واستغلال العثمانيين وتبعيتهم من جانب آخر.[694] كما يفسر أيضا سبب تحايل الكتاب العرب ولجوئهم إما لعرض أفكارهم التنويرية في إطار ترجماتهم للأعمال الأجنبية، كما فعل الطهطاوي، أو أن يلجئوا إلى الرمزية والمواربة خوفا من اضطهاد السلطة العثمانية، كما فعل فرنسيس مراش.

([694]) وتجدر الإشارة في هذا المقام، أن هذا الدور الذي قام به المنورون العرب امتد إلى منتصف القرن العشرين، فنجد الأديب الكبير توفيق الحكيم يعرض آراءه في فلسفة الحكم في احدى رواياته، وهي: براكسا ومشكلة الحكم، التي نشرها لأول مرة باللغة الفرنسية في باريس، ثم أتبعها – بعد قرابة عقد ونصف من الزمان- بطبعة عربية ، بعد قيام ثورة يوليو ، وظهور جيل جديد من السياسيين الشباب ذوي الخلفية العسكرية، فزاد توفيق الحكيم فصول روايته من ثلاثة فصول إلى ستة فصول ونشرها بالعربية.- ونأمل أن يوفقنا الله لإعداد دراسة عن آراء توفيق الحكيم وفلسفة الحكم لديه في دراسة قادمة، بإذن الله.

المطلب الثاني

المراش؛ حياته ومؤلفاته

1- حياة المراش:

فرانسيس فتح الله نصرالله مراش، هو أحد رواد النهضة الفكرية الحديثة، ولد في مدينة حلب السورية سنة 1835 م، لأسرة مسيحية تنتمي للطائفة الرومية الملكية، وتلقى تعليمه في حلب، وفي سنة 1850 سافر في سن الخامسة عشر مع والده إلى باريس ، وأقام فيها عاما وبعض العام ثم عاد إلى حلب ودرس الطب على يد طبيب إنجليزي في حلب إلى أن غالبه الشوق إلى باريس فارتحل إليها في عام 1866 م، واستمر في استكمال دراسته للطب فيها إلا أنه أصيب بشلل عصبي في عينيه منعه من مواصلة دراسة الطب في فرنسا ، فعاد إلى حلب التي تفاقم مرضه فيها حتى أفقده بصره نهائيا. وظل بحلب إلى أن توفي سنة 1873 عن عمر لم يناهز السابعة والثلاثين، ولكنه على قصر هذا العمر خلف كتابات أدبية وفلسفية ، كان لها أبلغ الأثر في النهضة العربية التي شهدتها الثقافة العربية في نهايات القرن التاسع عشر والقرن العشرين.[695]

2- أسرة المراش:-

ولد فرنسيس في أسرة مسيحية من أتباع مذهب الروم الكاثوليك الذي يدعى أحيانا بمذهب الروم الملكيين. اشتغل أغلب أفراد اسرته بالتجارة وحققوا ثروات كبيرة، حيث برز في مجال التجارة فتح الله مراش – والد فرنسيس– وابنه عبدالله المراش[696]، فكان من الطبيعي أن يتجه اهتمامهم إلى العلوم والآداب، وهو ما ظهر جليا في أسرته الصغيرة فكان والده فتح الله مراش لغويا أديبا وألف رسالة فيما يتعلق بانبثاق الروح القدس [697] وكان أخوه عبدالله (1839 – 1900) أديبا معروفا، وأخته مريانا (1849 –1919) شاعرة.[698] وقد وصفت هذه الأسرة بأنها بيت علم ينجب العلماء.[699]

([695]) راجع في ذلك : جورجي زيدان: المرجع السابق، ص 145 – 146.

([696]) علي أحمد حسين الشرع: فرنسيس فتح الله مراش ودوه في النهضة العربية الحديثة، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – الجامعة الأردنية،1976 ، ص 1.

([697]) إذ يرى أنها من الأب وحده على خلاف معتقد الآباء والكنيسة الرومانية. أنظر، علي أحمد حسين الشرع : السابق، ص 2. يوسف الدبس: تاريخ سوريا، المطبعة العمومية، 1905، ج4، ص 693.

([698]) د/ خليل المرسي : تجليات الفضاء التنويري في ادب فرنسيس المراش، بحث منشور مجلة جامعة دمشق ، المجلد 26 – العددان الثالث والرابع 2010 ، 16.

([699]) انظر: مارون عبود : رواد النهضة الحديثة ، دار الثقافة بيروت ، ص 123.

أما أسرته الكبيرة فقد كانوا أهل إقدام ونضال، فقد قُتل عمه بطرس المراش سنة 1818 مع عشرة آخرين من الكاثوليك بإغراء من جراسيوس اسقف الروم الأرثوزكس، وهي الحادثة التي قامت على إثرها ثورة الكاثوليك على أسقف الروم الأرثوزكس، وطالبوا الحكومة التركية بإزاحته، وأخذ الوالي التركي جانب الأسقف ورأي أن يقتل عددا من الروم الكاثوليك حتى يردعوا.[700]

3- مكانة أسرة المراش في مدينة حلب:

كان اشتغال أسرة المراش بالتجارة سببا في ثراء أفرادها، وكان اتجاههم إلى تلقي علوم اللغة والآداب شأن كبير في نجابتهم شهرتهم، ولم يقتصر الأمر على هذا الحد بل كانوا أهل نضال مؤمنين بقضية طائفتهم الدينية التي كانت تعيش في مجتمع يعج بالطائفية في ظل سياسة التمييز الطائفي والعرقي التي اتخذها الأتراك قاعدة لحكمهم في الشام، وقد ظهر نضال أسرة المراش وأثرها في حياة طائفة الروم الكاثوليك في حلب منذ مقتل عمه بطرس المراش سنة 1818 م، وفي سنة 1850 انتدبت الطائفة فتح الله مراش والد فرنسيس ليكون ممثلا عنها في اللجنة التي شكلها مسيحيو حلب بعد الفتنة المشهورة التي حدثت في ذات العام، وذلك لجمع التبرعات من الدول الأوروبية. وقد ذكرت المصادر أن فتح الله المراش كان ينشئ القصائد والمقالات في هجو الذين يجهلون على العرب ويحطون من قدرهم، وكان يبعث بها من باريس لينير بها عقول غلمان سوريا. وظل كذلك حتى بعد عودته من باريس وإقامته في بيروت سنة 1853م إلى أن توفي في سنة 1857م.[701]

وهذا ما جعل أسرة المراش تتمتع بمكانة تحظى بالاحترام والتبجيل من كل سكان حلب، لأنهم في دفاعهم عن حقوق طائفتهم كانوا يسعون أيضا للمطالبة بذات الحقوق للطوائف الأخرى التي كانت مضطهدة من الحكومة التركية. وقد أفادوا من مكانتهم الرفيعة في المجتمع الحلبي، وما تمتعوا به من آداب وعلوم في أن يجعلوا نضالهم نضال فكر وليس نضال سيف وحرب، إذ أنهم أدركوا منذ مقتل بطرس المراش المآل الذي ينتظر – لا محالة– من يسلك سبيل رفع السلاح على الحكومة التركية. وهو ما جعل رحلة هذه العائلة في نضالها ضد الأتراك تتسلح بالعقل والعلوم، وهو ما برز فيه فيلسوفنا المراش، الذي أعلى راية العقل والحرية والعلم والمساواة، وعاش مدافعا عنها.

([700]) انظر: لويس شيخو: الآداب العربية في القرن التاسع عشر، ص 44. كامل العزي: نهر الذهب في تاريخ حلب،ص323.
([701]) علي أحمد حسين الشرع : المرجع السابق، ص 2- 3.

4- تأثير الأوضاع الاجتماعية في حلب على المراش:

مما لا شك فيه أنه لا يستطع فيلسوف أو مفكر أن يعيش منعزلا عن واقع مجتمعه والظروف والأحداث التي يمر بها هذا المجتمع، أو أن تكون أفكاره معبرة عن مجتمع آخر غير الذي يعيش فيه وظروفه وأحواله، فمن هذه الظروف والبيئة تظهر عبقرية الفيلسوف والمفكر ويتطلع لمستقبل أفضل فيرصد أسباب تردي الواقع ويبحث عن دواء أو علاج لهذا الداء حتى يكون المستقبل أفضل وأكثر إشراقا. وفيلسوفنا فرنسيس مراش كانت حياته في مجتمع متعدد الأديان والقوميات، تسوده الطائفية، يتحكم الوالي العثماني فيه ويسيطر عليه بصورة كاملة. وقد تعرف فرنسيس المراش على واقعه المحلي منذ طفولته، وكان أول ما لفت انتباهه الوضع الاجتماعي القاسي القائم على أساس تقسيم المجتمع إلى طوائف[702] تعيش كل طائفة في عزلة تبعدها عن مشاركة الطوائف الأخرى، ويتقوقع أفراد الطائفة الواحدة متماسكين إلى بعضهم في حي خاص بهم لا يشاركهم فيه أحد من أبناء الطوائف الأخرى، وكانت هذه الطوائف تتنازع فيما بينها أحيانا كما حدث في عام 1818 وكانت نتيجة ذلك قتل عدد منهم خاصة الكاثوليك.[703]

وقد فرضت الطائفية في حلب العديد من الحواجز التي عزلت أبناء الطوائف عن بعض، فتؤكد المصادر أن كل طائفة كانت تقطن في أحد الأحياء، وكان للأحياء بوابات تقفل عليها عشية كل يوم حتى لا يداهمهم داهم ليلا، كما كان لرؤسائهم الدينين سلطة في حل النزاعات التي تنشأ بين أفراد الطائفة دون تدخل السلطة التركية، وكان الرئيس الديني هو المسئول عن إجراء عقود الزواج وتسجيل المواليد والوفيات، وجمع الضرائب وتسليمها للحكومة، بل وقد روى البعض أن الحكومة فرضت علي مسيحي حلب أن يتزيوا بزي خاص بهم حتى يميزوا بسهولة من بين سكان حلب، وكانوا مجبرين على المشاركة في احتفالات الولاء لحاكم الأستانة (السلطان التركي) ... الخ.[704]

([702]) وجد في حلب طوائف متعددة من المسيحيين ، حيث وجد بها، طائفة الروم (كاثوليك وأرثوذكس)،وطائفة الأرمن(كاثوليك وأرثوذكس)، وطائفة السريان، وطائفة الموارنة، وطائفة الكلدان، وطائفة اللاتين، وطائفة البروتستانت.

([703]) انظر: علي أحمد حسين الشرع : المرجع السابق، ص 11.

([704]) انظر، المرجع السابق، ص 11- 13.

وقد أدت هذه الأوضاع لحدوث العديد من المشاحنات بين أبناء الطوائف نتيجة ما سببته العزلة التي عاشتها كل طائفة من تعصب وسوء فهم، ومن أهم الفتن الطائفية التي وقعت في حلب في تلك الفترة نتيجة المشاحنات فتنة سنة 1850 ، وفتنة 1858. [705]

كانت تلك الأوضاع الاجتماعية للطوائف المسيحية سببا في شيوع القلق والهلع والفزع بين أبناء الطوائف المسيحية خاصة وأن هذه المشاحنات والفتن كانت أحداثها تتضمن اعتداءات على الأموال والأغراض والأنفس. [706]

وقد عبرت رواية غابة الحق عن التحول الفكري في حياة فرنسيس مراش، حيث ترك حياة الانفراد والعزلة –التي عبرت عنها أعماله السابقة عليها[707] –وخرج من عزلته إلى أفق أوسع، ولم يقف على حدود طائفته بل وجه اهتمامه للمجتمع العربي الكبير، فغابة الحق تمثل قمة الوعي عند المراش، إذ لم يعد منحصرا في همومه الخاصة أو في هموم طائفته، وبدأ يحس أنه في إطار مجتمع عريض يفكر في سبل جعله مجتمعا حرا يعيش أبناءه حياة فاضلة.[708]

5- صفاته ومناقبه:

ذكر جورجي زيدان واصفا ملكة المراش العلمية والأدبية، فقال: "كان في الجملة مشاركًا في كثير من العلوم، إلا أنه كان إلى العلوم الفلسفية أميل، وكان يؤثرها على العلوم الرياضية وغيرها؛ لما في تلك من سعة المجال للخواطر، ولما في هذه من ضيق المجال وحرج القيود والقوانين على من يريد أن يقتدح زناد نفسه، فإنه كان لا يطيق احتمال الأسر المعنوي فضلًا عن الحسي؛ ولذا كان يحاول التملص من رق العادات الجازمة بحجز حرية التصرف، بل طالما كان ينزع إلى الإغضاء عن قيود اللغة وأغلال قوانينها وسلاسل قواعدها أيضًا، حتى

([705])علي أحمد حسين الشرع : المرجع السابق، ص15

([706]) وقد برزت حالة الفزع والقلق تلك في أشعار فرنسيس المراش، فقال في أحدى قصائده:

كم من بلاد بالمحبة عمرت ولكم بها خضعت رؤوس جبال
لو كان في حلب أقل محبة مـــا عد ساكنها من الأدغال
كلا ولا كان الخراب يعصها والدهــر يعدمهــا من الإقبال

انظر لاميته في ديوان مرآة الحسناء.

([707]) خاصة كتابيه: دليل الحرية ، وخطبة في تعزية المكروب.

([708]) انظر: علي أحمد حسين الشرع : فرنسيس فتح الله مراش ودوره في النهضة العربية الحديثة، رسالة ماجستير ، كلية الآداب الجامعة الأردنية، 1967، ص 48 – 50.

صار قليل الالتفات إلى تحرير أساليبه وتنقيح عباراته على ما تقتضيه أصول الإنشاء. إلا أنه كان يعرف حق المعرفة أن الحرية المطلقة هي كالكبريت الأحمر، لا تقوم إلا في الذهن، ولا وجود لها في الخارج.[709]

وكل مَن أنعم النظر في تصانيفه خيِّل له أنه لم يكن في كل الأحوال راضيًا عن الزمان وأهله، وأنه كان كثير التبرُّم بالناس والأشياء كافة، وأن كلامه في كثير من المواطن يشفُّ عن الشكوى من الدنيا وأهلها، وهذا لا يستغرب من رجلٍ رماه الدهر بالأرزاء حتى أصبح كئيبًا كاسف البال. هذا ما يلمح من خلال نظمه ونثره، إلا أنه كان في معاشرة الناس ومخالطتهم متودِّدًا أنيسًا، تأبى نفسه أن يصيب الناس أذىً مما ابتلاه الله به من الأشجان، وكان إذا عنَّ له خاطر أملاه على كاتب أو صديق، وتوفاه الله وهو في شرخ الشباب.[710]

أعماله الأدبية والفلسفية:

تعددت الكتابات الأدبية والفلسفية لفرنسيس المراش، وقد اشتهر من هذه المؤلفات:

1) دليل الحرية سنة 1861.
2) المرآة الصافية في مبادئ الطبيعة سنة 1861.
3) تعزية المكروب وراحة المعتوب، سنة 1864.
4) غابة الحق في تفصيل الأخلاق الفاضلة ، سنة 1865.
5) رحلة باريس. سنة 1867.
6) كتاب دليل الطبيعة ، سنة 1867.
7) الكنوز الغنية في الرموز الميمونية، نشر سنة 1870 . وهي قصيدة تبلغ نحو خمسمائة بيت.
8) مشهد الأحوال، نشر عام 1870 وهي مجموعة من القصائد والأعمال القصيرة والنثر المقفى.

([709]) نقلا عن جورجي زيدان : المرجع السابق، ص 146 – 147.
([710]) المرجع السابق، ص 147- 148.
وقد امتدحه كل من قرأ كتاباته وأثنى عليه خير الثناء، فنجد مما كتب عنه في تقديم الناشر لروايته غابة الحق على لموقع الإلكتروني لمكتبة نور:

"فرنسيس فتح الله مراش" شاعر وكاتب خيالي من الطراز الأول طالب مؤلفه "غابة الحق" بالحرية لجميع الناس حتى العبيد، دعا فيه إلى السلام دعوة صارخة فرفع صوته في أشد الأيام إدلهماماً، وبلباقة الأديب والكلمة الطيبة فعرف كيف يؤدي رسالته ويرفع رايته ليطالب بحرية الإنسان في عهد سلاطين بني عثمان... وغرضه إيقاظ أمته العربية من سباتها الطويل في ظلال الاستبداد والذل والعبودية. وعرض رؤية إصلاحية شاملة في كافة أبعادها الفلسفية والفكرية."
انظر الرابط : https://www.noor-book.com/book/review/488892

9) درر الصدف في غرائب الصدف، نشر عام1872 مجموعة قصائد وأعمال في النثر المقفى.

10) مرآة الحسناء، نشر في سنة 1872.

11) شهادة الطبيعة في وجود الله والشريعة، نشر في سنة 1892 بعد وفاته .[711]

[711] ونشير إلى أننا قد أتعبنا البحث عن متن هذا الكتاب في مكتبات جامعاتنا المصرية ، وكذا دار الكتب والوثائق ، وعلى شبكة المعلومات الدولية، دون جدوى. رغم وجود بعض الدراسات التي تناولت فكرته في إطار عرضها لكتابات المراش الأدبية والفلسفية. ونتنمى أن تعنى الجهات العلمية والثقافية في مصر بتوفير هذا الكتاب وإعادة طبعة. ليتيسر للمهتمين بالفكر الفلسفي من مطالعته ودراسته، وبيان أثر هذا الفيلسوف في الفكر العربي.

المطلب الثالث

الخلفية التاريخية لكتابة رواية غابة الحق

صدرت رواية المراش في عام 1865 م، وهو نفس العام الذي انتهت فيه الحرب الأهلية الأمريكية بإصدار أبراهام لينكولن، الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية، قرار تحرير العبيد. وكانت هذه النتيجة التي انتهت بها الحرب الأمريكية، إلى جانب أفكار الحرية الفرنسية التي عايشها المراش أثناء سفره طفلا مع والده، ثم خلال فترة إقامته في باريس أثناء دراسته بها، كان له أبلغ الأثر في تبنيه تلك الأفكار والقيم التي تقوم على الحرية والمساواة ، ومعاداته للرق وكل ما يميز بين البشر، فقد كان اعتقاد المراش – الذي ظهر في روايته – هو المساواة بين البشر ومقت عادة اتخاذ العبيد، فيقول على لسان الفيلسوف الذي يوجه حديثه إلى ملك العبودية قائلا:

"فمن أين لك شراء الإنسان وعذابه وقهره يا أيها الظالم الغشوم، وكيف تمكنك الطبيعة الإنسانية من مجاوزة حدودها وشرائعها بأفعال شريرة كهذه ؟، ألم تتحرك في باطنك جوارح الشفقة عندما يكون هذا الغريب المسكين واقفا بين يديك القاسيتين مرتعدا مذعورا وعيناه مغرورقتان بالدموع، ويداه مبسوطتان لديك بكل ذل وهوان عسى ينال منك العفو أو الرأفة على ذنب ربما يكون حسنة. أطلق هذا العبد فلا يصوغ لك استعباد الجنس البشري، ..." **(712)**

وقد ظهر إعجاب وانبهار المراش بالولايات المتحدة الأمريكية في أكثر من موضع من روايته غابة الحق، فيقول : **"هو ذا العالم الجديد (أمريكا) قد رفض قبول شريعة التعبُّد؛ ولذلك قد نهض ضد هذه العادة الخشنة بالأسلحة والنار إذ لم يعد يحتمل وجود بقية لدولة التوحش على سطح الأرض"**[(713)]

وفي موضع آخر يقول: **"وها رائحة بارود أمريكا منتشرة إلى الآن في آفاق المسكونة مما أثاروا من الحروب على مستعبِدي البشر، أطلِق هذا العبد الغريب أو يطلق ذاته رغمًا عنك آخذًا الإسعاف من جميع الناس ومساعدًا من نفس الحكومة المدنية بعد أن يستعطيك أجرة المثل."**[(714)]

([712]) فرنسيس مراش: غابة الحق ، طبعة هنداوي ، ص 77 ، وأيضا، طبعة مكتبة الأسرة، ص 226.
([713]) فرنسيس فتح الله مراش : غابة الحق ، طبعة هنداوي ، ص 8 . وانظر ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 72.
([714]) المرجع السابق ، طبعة هنداوي ، ص 77 ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص 226.

فقد كان لنتائج الحرب الأهلية الأمريكية، وقرار تحرير العبيد، أثر بالغ في فكر المراش عن الحرية في نظم مدينته الفاضلة، ورغم ذلك فلم ينس المراش أن يشير مرة بعد مرة وبكل تبجيل ومدح وثناء إلى الخليفة العثماني، وكأنه –أي: المراش– يتوارى خلف ستار الرمزية ليشير إلى مفاسد السياسة، ويمتدح الخليفة ليأمن الترصد والاضطهاد والعقاب. فقد أشار في سياق روايته إلى إصدار الخليفة العثماني عبدالعزيز خان قرارا بإبطال الإتجار بالرقيق، وأن الحكومة العثمانية لم تعد تسمح بشراء العبيد واستعبادهم، وأنه كان من حق العبد إذا رفض سيده عتقه أن يلجأ للحكومة لتقوم هي بتحريره من نير العبودية والرق.[715] لكنه – وفي إطار روائي– يعرض لهذه المعلومة في قصة كفاح أحد العبيد لنيل حريته، وكأنه يقول أن هذا القرار ما زال حبرا على ورق، وأن الرق منتشر، وأن الدولة العثمانية لم تتخذ الإجراءات اللازمة لإلغائه مكتفية بالقرارات التي لا تمثل أية قيمة في الواقع بدلالة استمرار الرق حتى في الأستانة نفسها، عاصمة الدولة العثمانية.

فقد اختار المراش اسلوب الرمزية والمواربة في النقد ليتخفى فيه بعيدا عن استبداد الحكومة العثمانية، حيث كان من الشائع الأخذ بالشبهة والاضطهاد السياسي ، فكان السلطان عبدالحميد الثاني يعتمد على الجواسيس في إدارة شئون الدولة العثمانية، مما جعل بعض المؤرخين يؤكد أن نصف الشعب التركي كان يتجسس على النصف الآخر، وأن عدد الجواسيس في حلب والشام بلغ أربعين ألف جاسوس، وأنه عن طريق هؤلاء الجواسيس كان يقتل معارضيه بالسم –كما فعل مع عبدالرحمن الكواكبي– أو يستدعيهم للإقامة في استانبول ثم يحيطهم بالجواسيس حتى يموتوا كمدا وهما –كما فعل مع جمال الدين الأفغاني– ولذلك حينما قامت الانتفاضة ضد حكمه كان من شروطها تخفيف حدة التجسس على المواطنين.[716] ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى إشادة المراش بوالي مصر إسماعيل باشا[717] في تلك الفترة الذي أصدر أمرا بمنع اقتناص العبيد من أفريقيا، بل وبمحاربة العصابات التي تقوم بخطف الأفارقة وبيعهم في أسواق العبيد[718]، بل وأشاد المراش كذلك بمجهوداته في إدخال أسباب التمدن إلى مصر، وتمهيد سبل الحرية فيها.[719]

([715]) وهو بهذا يشير إلى القرار الذي صدر في عام 1855 م، من الحكومة العثمانية بتحريم الاتجار بالرقيق بصورة كلية.

([716]) أنظر: محسن عبدالعزيز: ليل الخلافة العثمانية الطويل ، مرجع سابق، ص 85.

([717]) حصل والي مصر في تلك الفترة إسماعيل باشا على لقب "خديوي" في عام 1866 وهو العام التالي مباشرة لعام صدور رواية غابة الحق لفرنسيس فتح الله مراش.

([718]) نذكر هنا رواية هامة أرخت لجهود الجيش المصري في مواجهة عصابات خطف الأفارقة وبيعهم في أسواق الرقيق، وهي رواية "عتبات الجنة" للكاتب المصري فتحي إمبابي. وهو من المعاصرين لألفيتنا الثالثة.

([719]) غابة الحق ، طبعة مؤسسة هنداوي ، ص ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 227.

ولم تكن الحرب الأمريكية فقط هي ما أثر على المراش ودفعه لكتابة هذه الرواية، بل يوجد عامل آخر أكثر أهمية من تأثير نتائج تلك الحرب، ويتمثل هذا العامل في أفكار التنوير الأوروبي خاصة أفكار جان جاك روسو، ومنتسكيو، وغيرهم من الأدباء والفلاسفة الذين سبقوا عصر المراش، وكان لأفكارهم وكتاباتهم أثر بالغ في أفكار وأهداف الثورة الفرنسية، هذه الأفكار التي تشبع بها المراش وأعجب بنتائجها التي حققتها الثورة الفرنسية والأمريكية، وهو ما دفعه للبحث عن الأسس التي يعتمد عليها التمدن الحقيقي لينقل مجتمعه العربي من واقع الطائفية والتبعية (العبودية) إلى الاتحاد والتضامن، ومن الجهل إلى العلم، ومن الأخلاق السيئة الرزيلة إلى محاسن الأخلاق وأفضل الشيم، فأوضح أن المدنية الحقة التي تعتبر أساسا لمدينته الفاضلة تعتمد على تحسين الأخلاق والعادات التي لن تتحقق إلا بالتربية الصحيحة ونشر العلم والثقافة، ومن ثم كانت كتابات المراش، خاصة روايته غابة الحق هي مجهود فردي من هذا الفيلسوف لتنوير مجتمعه ولإبراز أسس المدنية التي تسود فيها المساواة وقيم العدالة والحرية، التي تسمح للإنسان العربي أن يعيش حياة فاضلة.

الفصل الأول

حلم التمدن لدى فرنسيس مراش

استعرض فرنسيس مراش حلمه عند المدنية في روايته غابة الحق ، وسنحاول في هذا الفصل استعراض ملامح ذلك الحلم ، كما نقف على رؤية المراش لأنواع الممالك أو المدن، ومن ثم نقسم هذا الفصل إلى المبحثين التاليين: المبحث الأول: حلم الدولة المدنية. المبحث الثاني : أنواع الممالك لدى المراش ونظمها.

المبحث الأول

حلم الدولة المدنية

إن المتفحص لرواية غابة الحق لفرنسيس المراش، يجد قدر من الصعوبة في الحكم على هدفه ومقصده من هذه الرواية، هل أراد أن يصوغ نموذجا لمدينة فاضلة؟، أم أنه فقط كان يحلم بإصلاح الأوضاع الاجتماعية المتردية وإصلاح النظام القائم وجعله أكثر عدالة مع صيانه الحريات والحقوق؟ أم أنه يصوغ خطة لنقل الواقع العربي المتردي تحت الحكم العثماني لمستقبل أكثر مدنية وتحضر، تحضر حقيقي وليس مجرد مظهر؟

للوقوف على حقيقة ما أراده المراش، سنتجه لتحليل أفكاره، وكيف ربط فكرته عن المدنية والتقدم بواقع مجتمعه. ولنبدأ بتناول أسس المدنية كما أوردها المراش في رواية غابة الحق.

❖ **أسس المدنية :**

قدم المراش لفكرته عن المدينة الفاضلة باسلوب شعري جميل، حيث ابتدأ قائلا:

"انفتح أخيرًا لدى أبصار بصيرتي باب رحبٌ مكتوب على قنطرته "**العقل يحكم**" ومنه عاينت برية فسيحة جدا، ولاح لي عن بُعد بيرق يخفق مقتربًا؛ فوضعت نظارة الاختبار وأمعنت النظر فرأيت مكتوبا عليه: "**العلم يغلب**" وظهر لي حينئذٍ من ورائه جيوش التمدُّن الزاهر ممتطاة الاختراعات العجيبة والمعارف الكاملة، وهي تخطر متموجة بأنوار أسلحة **الحكمة والعدل**، متدرعة بدروع **الحرية الإنسانية** والخلوص المحض، ورأيت أمام هذه الجيوش المظفَّرة تتراكض ممالك الظلام مع كافة أجنادها، ناكصة على أعقاب القهقرة والانكسار، وهي

تزاحم بعضها البعض إلى الهبوط في لجج العدم والاضمحلال حيثما لا حركة ولا صوت؛ وهكذا مدت دولة العقل قوتها على كل بقعة ومكان، وعم السلام على كافة المسكونة." [720]

فقد حدد المراش في هذه الفقرة الأسس التي يُعتمد عليها في إقامة المدنية الحديثة، فجعل المراش فكرة التمدن تقوم على أسس يمكن استخلاصها من ذلك النص بأنها :

1- حكم العقل .

2- غلبة العلم.

3- سيادة الحكمة والعدل.

4- احترام الحرية الانسانية.

وكأن حلم المراش في روايته، ما هو إلا تأمل في وسائل تمكين العقل من الحكم، وسبل القضاء على الجهل والتخلف، حتى تتحقق المدنية الحقة التي تحقق العدل، وتكفل الحرية الإنسانية. ولهذا عقد المراش في الفصل السادس من فصول الرواية، مقابلة بين المتناقضات، حيث عقد مواجهة بين قادة الشر التابعين لمملكة العبودية وبين قادة جيش التمدن، أي قادة ملكة الحرية.

فعدد قادة الشر (قادة مملكة العبودية) ثمانية وهم: الجهل، والكبرياء، والحسد والطمع، والبخل، والضغينة، والنميمة، والكذب والنفاق، والخيانة.

وعدد قادة جيش التمدن (قادة مملكة الحرية) ثمانية وهم: العلم، والإتضاع (التواضع)، والرضا والقناعة، والكرم، والصفح، والكتمان، والصدق والحق، والأمن.

وبهذه المقابلة بين قادة جيش كل مملكة أجلى أسس مملكة الحرية أو أسس المدنية، والتي تتمثل في أخلاق تناقض تلك التي تسود في مملكة العبودية، وبين أن هؤلاء أي قادة مملكة الحرية، يرتدون زيا واحدا، وكأنهم يظهرون للناظر دليل على وحدة الغاية والهدف.

([720]) انظر ، مقدمة المراش للرواية .

بخلاف قادة الشر (جيش مملكة العبودية) فقد اختلفت ملابسهم، وأوضاعهم وأشكالهم، ومن ثم غاياتهم وأهدافهم. وهو ما يفسر أن انتشار الجهل والظلم يكون بسبب اختلاف الأهداف والخطط التي يسعى إلى تحقيقها كل قائد من هؤلاء، فخطط وأهداف قادة مملكة العبودية تختلف باختلاف أطماعهم ومراميهم وما يطمح كل منهم لتحقيقه باستخدام منصبه، تلك الخطط التي لا يوجد مكان فيها للصالح العام للأمة والمجتمع.

بخلاف قادة التمدن الذين يتجهون لتنفيذ خطة واحدة، ويعملون ضمن نظام متناسق الأركان متحد الأهداف والغايات هدفه الأسمى هو تحقيق مصلحة الأمة.

إن التمدن كما يشير إليه المراش هو التخلق بالأخلاق الفاضلة التي ذكر سيادتها في مملكة الحرية، والتي يلاحظ تكاملها، فلاشك أن اجتماعها في مجتمع يجعل الحياة فيه حياة فاضلة، أيا كان تنظيمه السياسي.

وأولى المراش صفات الحاكم اهتماما واضحا، حيث يظهر لنا من قراءة الفصل السابع والذي عقد فيه المراش المحاكمة لملك العبودية وأعوانه من قواد الشر، أن للمراش دعوة خفية في نصوص روايته، وإن لجأ للرمزية في القصة لقولها خوفا من الاضطهاد، وهي الدعوة إلى أن تتحرر شعوب الشرق من عبوديتها للجهل والحسد والخيانة، وتتطلع إلى التمدن بإعلاء العلوم وأخلاق التواضع والكرم والصفح والكتمان والصدق والأمانة. هذه المقابلة التي تحمل نوع من المقارنات بين هذه الصفات الحميدة وتلك الصفات الدنيئة، كانت هي جوهر فكرته عن التمدن.

إذن : فالتمدن عند المراش خُلق قبل أن يكون نظام .

المبحث الثاني

أنواع الممالك لدى المراش ونظمها

حصر المراش الممالك أو الدول في نموذجين يتناقض كل منهما مع الآخر، فأقام المراش مقارنة بين نوعين للممالك أو المدن؛ هما مملكة الحرية ، ومملكة العبودية.

النوع الأول: مملكة الحرية: وهي ما تماثل في نظمها وأخلاق حكامها وقيم مجتمعها نظم مدينة المراش الفاضلة.

والنوع الثاني : مملكة العبودية: وهي نموذج مناقض تماما للنوع الأول. ففيها تسود أرذل الخصال وتنعدم القيم، فهي على ما يرى المراش أسباب التخلف والتوحش وإهدار القيم الانسانية.

ويظهر لنا من تلك المقابلة التي أقامها المراش بين مملكة الحرية ومملكة العبودية، تأثره بفكرة الفيلسوف العربي (المعلم الثاني) الفارابي والذي ميز بين المدينة الفاضلة والمدينة الجاهلة.[721] وكذا إخوان الصفا الذين ميزوا بين: مدينتهم (الروحانية) الفاضلة وغيرها من المدن الجائرة. فميزوا بين دولة أهل الخير، وهي دولتهم، ووغيرها مما أطلقوا عليه: دولة أهل الشر.[722]

- **مملكة الحرية:**

تدور رواية المراش حول خمس شخصيات رئيسية هي قوام مدينته الفاضلة، وعليها تقوم أسسها. وتتمثل الشخصيات الخمسة في: (1) ملك الحرية . (2) ملكة الحكمة. (3) قائد جيش التمدن. (4) وزير محبة السلام. (5) الفيلسوف.

ويؤازر هؤلاء الخمسة في السهر على نظم المملكة ورعاية شعبها، ثمانية من القادة هم:(1) العلم. (2) الاتضاع (التواضع). (3) الرضا والقناعة. (4) الكرم. (5) الصفح. (6) الكتمان. (7) الصدق والحق. (8) الأمن.

([721]) انظر، د/ مصطفي سيد أحمد صقر : نظرية الدولة عند الفارابي، دراسة تحليلية تأصيلية لفلسفة الفارابي السياسية، مكتبة الجلاء الجديدة ، المنصورة، 1989 .

([722]) انظر: د. فؤاد معصوم : اخوان الصفا، فلسفتهم وغايتهم، دار المدى ، الطبعة الأولى ، سوريا 1998 ، ص320. د. عمر الدسوقي: اخوان الصفا، دار إحياء الكتب العربية، دون سنة ، ص 82. د. محمود إسماعيل : إخوان الصفا رواد التنوير في الفكر العربي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1998، ص 102 وما بعدها. د. محمد فريد حجاب: الفلسفة السياسية عند إخوان الصفا، تقديم د. عزالدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1982،ص 357 وما بعدها.

ويلاحظ على هذا التنظيم: أن المراش جعل "الحرية" على قمة الهرم السياسي في مملكة الحرية، وهو بذلك يشير إلى علاقة الحرية بالتقدم في جميع المجالات، وتظهر قيمة الحرية جلية في الرواية في الحرية التي ينطق بها كل فرد حول الملك، والسماحة العقلية التي يقابل بها الملك المختلفين معه، فالحرية في مملكة التمدن هي شرط وجودها الأول.[723]

وقد عقد المراش مزاوجة بين "الحرية" و "الحكمة" في رأس مدينته الفاضلة، فالملك يوصف بأنه "ملك الحرية" والملكة توصف بأنها "ملكة الحكمة"، ولا شك أن اقتران الحرية بالحكمة يولد نوعا من المسئولية تجعل صاحبها يحتاط من الذلل، كما أن بناء الحياة السياسية في المدينة على أسس الحرية والحكمة يجعلها بعيدة عن كل معاني الظلم والجور والجهل وكافة الأخلاق الرديئة التي تهلك الأمم والممالك. ويظهر لنا من ذلك كيف خالف المراش نموذج أفلاطون في مدينته الفاضلة، ولم يجعل الفيلسوف هو الحاكم، لكنه – أي المراش– جعل الفيلسوف في مقام المستشار الحكيم الناصح[724] الذي يتفق مع ملكة الحكمة في نصح الملك وتوجيهه لما فيه صالح المملكة.

كما نلاحظ أن وزير السلام يقوم بدور مهم في الرواية فهو الذي يعارض فكرة قتل ملك العبودية وقواده، ويقدم الرأي بأن تعقد محاكمة لإظهار خطأهم وإقامة الحجة عليهم.

وقائد جيش التقدم، له دور في حماية المدينة أسوارها وسكانها، وقيمها. إلى جانب أنه يضمن اتساق وتوافق عمل القادة الثمانية الأخرى(قادة جيش التمدن) التي تعمل تحت لواءه، بما يضمن دقة التخطيط السياسي والانسجام في تنفيذ السياسة العامة للمملكة ومن ثم يضمن تحقيق الخير العام لجميع شعب المملكة.

- **مملكة العبودية:**

أما في مملكة العبودية فالشخصية الرئيسية فيها هي: ملك العبودية ، ولا يصاحبه أحد على رأس المدينة وهو دليل على التحكم والتجبر، والاستبداد والانفراد بالرأي. ولهذا كان من الطبيعي أن يعتمد هذا الطاغية على قادة يدعمون تلك الصفات. فكان بجانب ملك العبودية ثمانية من القادة هم: (1) قائد الجهل (2) قائد الكبرياء (3)

([723]) د. جابر عصفور : تقديمه لرواية غابة الحق لمؤلفها : فرنسيس فتح الله مراش ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة مكتبة الأسرة 2000 ، ص 47.

([724]) وهو ذات الدور الذي يقوم به الفيلسوف في رواية "براكسا أو مشكلة الحكم" لتوفيق الحكيم، بما يشير- في رأينا - إلى أن الفكر العربي اتجه منذ المراش إلى محاولة البحث عن تنظيم سياسي يكون للفيلسوف دور فيه ولكنه ليس الدور الرئيس، فلا يحكم الفيلسوف، ولكنه يقدم النصيحة ، والمشورة.

قائد الحسد والطمع (4) قائد البخل (5) حامل لواء الخيانة (6) قائد الضغينة (7) قائد النميمة (8) قائد الكذب والنفاق .

وقد وصف المراش كل منهم بصفاته الخاصة، بما يبرز قدر تشتت غاياتهم، واستغراق كل منهم في البحث عن مصلحته الخاصة بما يفسد المملكة، ويمنع عنها الخير. وبذلك يظهر لنا قدر التعارض والتضاد بين أسس ومكونات كل مملكة من المملكتين اللتين أقام المراش المقارنة بينهما لإظهار دعائم التمدن وأسس التقدم والحرية في مدينته الفاضلة.

الفصل الثاني

أسس المدينة الفاضلة لدى المراش

قبل أن نتناول الأسس التي أوردها المراش وجعلها الأساس الذي تقوم عليه نظم المدينة الفاضلة التي أطلق عليها اسم مملكة الحرية: نشير إلى ملاحظة مهمة وهي أن المراش يركن في بعض المواضع إلى التأصيل (لغويا، وتاريخيا، وفلسفيا) لبعض الأفكار التي يتناولها على لسان الفيلسوف، وكان من بين تلك الأفكار التي تناولها في اسلوب رصين – يجعل القارئ يشك أنه يقرأ رواية، ويعتقد أنه أمام بحث فلسفي متعمق– هي فكرة التمدن، فقد ذكر المراش على لسان الفيلسوف: "**إن التمدن في اللغة: الدخول في المدينة، وفي الاصطلاح: ناموسٌ يرشد الإنسان إلى تجويد أحواله الطبيعية والأدبية، وهذا الناموس يُبنَى على خمس دعائم، وهي أولًا: تهذيب السياسة، ثانيًا: تثقيف العقل، ثالثًا: تحسين العادات والأخلاق، رابعًا: إصلاح المدينة، خامسًا: المحبة.**"[725]

إذن فدعائم التمدن الحديث– وهي ذات الأسس والدعائم التي تقوم عليها المدينة الفاضلة التي يصوغها المراش في روايته غابة الحق– خمس ، وهي:

1) تهذيب السياسة.
2) تثقيف العقل.
3) تحسين العادات والأخلاق.
4) اصلاح المدينة.
5) المحبة.

([725]) غابة الحق ، طبعة هنداوي، ص 48 .

وقد استطرد المراش في بيان أهمية كل من هذه الدعائم في قيام واستمرارية مدينته الفاضلة، ونعرض لآرائه بشأنها في ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول : العقل والسياسة.

المبحث الثاني : الأخلاق والمحبة.

المبحث الثالث: سبل إصلاح المدينة.

المبحث الأول

العقل والسياسة

1- أهمية العقل في بناء المدنية:

أعلن المراش أن الدخول في حالة التمدن يتطلب من الانسان أن يعود لحالته الأولى التي كان فيها سليم الطباع ميال للتعاون مع أقرانه[726]، وهو لن يتمكن من العودة لهذه الحالة إلا بتثقيف عقله، وتهذيب طباعه التي غيرتها ظروف التوحش التي عاش فيها في أطوار سابقة من تكور المجتمعات. فيقول المراش "... **لم يَعُدِ الإنسان قادرًا على الدخول في دائرة التمدن الذي يطلب سذاجة الصفات وسلامة الطباع إلا إذا كان متزينًا بتثقيف العقل الذي يعتبر كآلة عظيمة بها يمكن لكلٍّ من البشر أن يسترجع إلى طبيعته ما أفقدها التوحش.**" (727)

كما أكد المراش على أن تثقيف العقل لا يكون إلا بنشر الثقافة والتعليم ، وهو بهذا يعد أهم دعائم المدنية الحديثة، حيث أكد على أن التثقيف يكون بنشر التعليم، والفنون والآداب، فيقول المراش:

"**ولا يتم هذا التثقيف إلا بالتروُّض في العلوم والفنون ودراسة المعارف الطبيعية والأدبية. ومن المعلوم أن العلم يخلق في الإنسان قلبًا نقيًا وروحًا مستقيمة، ويجعله ظافرًا بكل الصفات الصافية ونافرًا عن كل ما يشين الجوهر الإنساني، ولا يترك له سبيلا إلى التفكُّر في الأمور الدنيَّة والأميال المنحرفة؛ وهو الأمر الذي تشتق منه كل أفعال الشر، وعليه تُبنى كل دعائم التوحش**".[728] "**إن العلم هو الفاعل الأعظم لتثقيف العقل والمروِّض الأكبر لجماح الطبائع، والسبب الأهم لتشييد التمدُّن والعمار إذ هو يرفع أفكار الإنسان إلى الحقائق السامية فلا تعود دائرةً على مستحقرات الأشياء، ويرسم في مرآة ذهنه صور الكائنات الدقيقة فلا يعود هاذيًا بخزعبلات الأمور فتنطفي من قلبه توقُّ دات الحسد بنظره إلى زوال المحسودات، ويطرد من صدره ضواغط الطمع**

([726]) وهي الحالة التي عبر اخوان الصفا عنها بأنها حالة الفطرة، والتي يرون أن الانسان عاش خلالها حياة خيرة خالية من الشرور، حيث كان المرء يعتمد على نفسه ولا يترك تصريف أموره لغيره، بل يتصرف برأيه في مصالحه في الأوقات التي تدعوه فيها طباعه. فالإنسان يكون في غاية الاعتدال في حالة الفطرة. وأن الخروج من حالة الفطرة هذه هو ما جعل الانسان ممنوعا من يتصرف برأيه في الأوقات التي تدعوه إليها طبائعه المركوزة في جبلته. انظر : رسائل اخوان الصفا، ج 4 ، ص 26. و د/ محمد فريد حجاب : المرجع السابق، ص 358.

([727]) فرنسيس المراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص ، طبعة هنداوي ، ص 51.

([728]) فرنسيس المراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص ، طبعة هنداوي ، ص 52.

بإدراكهِ حقيقة المطموعات، وتتلاشى من روحه بقية الأطوار المنتجة رجسه الخراب كالقساوة التي غرَّقت مراكب مصر، والالتطاخ الذي هدم قصور آثور، والتغفُّل الذي كسف شمس فارس، والطمع الذي كسر صولجان مكدونية، والضغينة التي مزقت أحشاء فلسطين، والكبرياء التي ثلَّت عرش الروم، والخيانة التي قلبت ممالك الرومانيين، والبغض الذي شتت شمل لبنان وزعزع أركان دمشق. ثم تنمو به الصفات الداعية إلى جلالة العمار كالشجاعة والنباهة والمحبة والاتِّضاع والدعة والإحسان والوفاء والأمنية؛ إذ يعود خبيرًا بغوائل تلك الأطوار الطالحة، وعليمًا بنتائج هذه الصفات الصالحة. فبدون تثقيف العقل إذنْ لا يعدُّ الإنسان إلاَّ مع البهائم التي لا عقل لها ولا يمكن أن يدعى متمدنًا قط." [729]

2- تحليل المراش لنشأة السياسة والمدنية:

قدم المراش تحليلا في غاية الأهمية لأصل نشأة الممالك والدول، فيبدأ من الفكرة الجامعة التي مثلت الطريق الذي سارت فيه الأمم كلها نحو التحول من حياتها البدائية إلى الحياة ضمن نظام يكفل تطبيق الشرائع والقوانين هو نظام (الدولة) أو المملكة. فيؤكد أهمية السياسة في حياة المجتمع البشري، فبدون السياسية لا تستقيم الشرائع، ولا تؤدي دورها في ضبط المجتمع، فكانت السياسية هي السبب في ظهور الممالك؛ فيقول المراش: "**أما ينبوع ظهور السياسة والسيادة والشرائع، فهو جارٍ من تغلُّب الناس بعضهم على بعض منذ القديم، وهو الأمر الذي أنتج التملك والمملكات على وجه الأرض؛ فلا سبيل لمن يرغب الاطِّلاع على حقائق الحوادث البشرية وطرائق حدوثها إلا في إطلاق طيور التبصُّرات الدقيقة لتحوم باسطة أجنحة البحث والاستقصاء على شواجن التاريخ العام، حيثما يشتبك شجر المواقع في منحدرات الأجيال الغابرة وتهوي غدران الوقائع من شواهق القدميَّة العالية.**"[730]

ثم يرجع الفكرة إلى ينبوعها الذي خرجت منه، فيجعل فكرة السيادة هي أصل ظهور السلطة في الجماعة،[731] ويعرض لتطور الفكرة في عبارات موجزة تؤكد دقة التحليل وصدق التأريخ والوصف: "**فلا ريب أنه إذا تطلبنا معرفة أصل انتماء وانقياد العالم البشري بعضه إلى بعض، وكيفية انتشار السيادة والشريعة فيه، إنما يدعونا الأمر إلى التوغُّل في أودية التواريخ الفسيحة .وهناك تبرز لدينا عروسة غابة الحقائق من خباء الأزمنة السالفة مقدمةً**

([729]) فرنسيس مراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 171، طبعة هنداوي ، ص 54.

([730]) غابة الحق ، طبعة هنداوي، ص 35.

([731]) هي ذات النتيجة الذي اهتدينا إليها في بحث سابق لنا قبل أن نصادف رواية المراش وتحليله الفذ لهذه المسألة. راجع لنا، فكرة الشخصية الاعتبارية في مصر الفرعونية، بحث منشور بمجلة البحوث القانونية والاقتصادية – كلية الحقوق - جامعة المنوفية، مايو 2020 ، العدد 52 ج 4 .

لنا بين أناملها زهرة المراد، فنعلم حينئذٍ أن الإنسان لم يَسُد في أول أمره إلا على عيلته ومتعلقاتها فقط، ثم آلت به حركات الظروف إلى أن يسود ويسطو على قبيلةٍ، ثم أفضت به تلك السيادة والسطوة إلى التسلُّط على شعوب مختلفة وقبائل متنوعة حيثما نودي به :يعيش الملك. فهات بنا لنهبط بأقدام الاستقراء في أعماق القدميَّة الغامضة حيثما قد ابتدأت تلك الحركات وأخذت بالصعود إلى قمة التَّمام الأقصى، حتى إذا ما بلغنا سدرة التتبُّع مخترقين فلوات الأدهار المتراكمة نجد أنفسنا منتصبين على عرفات البداية؛ إذ نشاهد الإنسان القديم يهرع إلينا شاهرًا حسام السيادة هكذا..."[732]

ويستعرض المراش – على لسان الفيلسوف– تلك المراحل التي مر بها الانسان من حياته البدائية التي اعتمد فيها على القنص والصيد والتقاط ما تجود به الطبيعة عليه من ثمار الأشجار، والتحول عن ذلك والاستقرار حول ضفاف الأنهار واكتشافه الزراعة وامتهانها، وما صاحب استقراره هذا من تقدم في العمران، إذ ترك أكواخ الجبال وبدأ يبني منازله من الحجارة والطين، ويصور المراش أن أول بناء كان في القرية هو بيت الزعيم[733]، وهكذا قدر للجماعة الاستقرار تحت قيادة زعيم، بما كان عليه من واجب في ضبط الجماعة وإقرار النظام فيها فكان عليه أن يخترع القوانين، فيقول المراش: "**ولم تزل – أي الجماعة– مع تقدُّم الزمان تنمو وتتَّسع بانضمام آخرين إليها، حتى صارت جمهورًا غفيرًا يجري تحت سياسة ذلك الكبير الذي كان يخترع شرايع وقوانين يلتزم باعتناقها كلٌّ من هذا الجمهور لدفع وقوع الخلل في نظام الجمعية، وبِناءً على ذلك سمَّوه أميرًا.**"[734]

ثم تطور البنيان الاجتماعي للمدينة، حيث بدأت تقبل كل من يريد الانتماء إليها والعيش في كنف أميرها، وكان ذلك القبول مشروط بالخضوع للأمير وطاعة النظام وما يفرضه من الشرائع والقوانين، وعنوان ذلك الخضوع هو أداء الضرائب، وهو ما ساهم في تضاعف مساحة المدينة وزيادة عدد سكانها. فيقول المراش: "**كانت تلك المدينة تقبلهم بكل إكرام على شرط أن يخضعوا لأحكامها وشرائعها ويؤدّوا الأعشار لأميرها؛ فلم تلبث أن تعاظمت جدًّا، وتضاعفت مساحةً وسكانًا، وصارت محاطة بأسوار رفيعة وحصون منيعة، حتى أضحت مركز رهبة يدور عليه احترام القبائل وموضوع عظمة يُحمل عليه حسد البشر.**"[735]

([732]) غابة الحق ، طبعة هنداوي ، ص 36.
([733]) غابة الحق ، طبعة هنداوي، ص 40.
([734]) غابة الحق ، طبعة هنداوي، ص 38.
([735]) المرجع السابق، ص 40.

ولما كان على الجميع الخضوع لطاعة ذلك الأمير، فيجب عليه هو الآخر أن يعمل على تحقيق الأمن والعدل والخير للجماعة، وبذلك كانت تتحقق غاية السياسة، فيقول المراش:

لأنه– أي: الأمير– كان يحمي برجاله مزارعهم وحقولهم، ويمنع تعدِّي هذا على أمتعة ذاك، مدافعًا عن تخومهم هجوم المغتصب، ساهرًا على جميع أحوالهم السياسية بدون أدنى خلل في ترتيب الجمهور، حاكمًا ما بينهم بالعدل، قاضيًا بالإنصاف ناشرًا على الجميع راية شريعة واحدة، غير ملتفت إلى الامتيازات الأدبية ما لم يكن لأربابها نفع الصالح العام، مجتهدًا بكل إمكانه في راحة شعبه ورفاهيتهم، عارفًا أن من يأخذ أجرته يطالب بالعمل، وإذا لم يعمل يسقط من عين ذاته بحيث من لا يؤْثِر أن يعمل فلا يأكل، عالمًا أن السياسة أو الرياسة إذا وقعت في غير محلِّها تطلَّب من الشعب إنقاذها، غير مأخوذ بخمرة حب الرياسة التي متى خامرت العقل منعت بأبخرتها الكثيفة نفوذ أشعة الصواب فيه . متيقظًا لكل واجباته، صاحيًا في كل أعماله، ذا سلوك حسن مع الجميع، محبًّا للغرباء، قادرًا على السياسة، لا سكيرًا ولا ضَرَّابًا ولا طمَّاعًا."[736]

وهكذا تؤدي حسن السياسة إلى تعميق العلاقة بين الأمير ورعيته، وتجعل الحياة أكثر أمنا وسلاما، فتنصاع الجماعة لأميرها ومدبر سياستها، وتطيعه لما شهدته منه من حسن تدبير يحقق الخير والرخاء لهم، ويزاد اهتمام الأمير بهم شأن الأب بأبنائه لما وجده من محبة وتقدير منهم. "ولما رأى أولئك القوم أن هيئتهم الاجتماعية قد انطوت على كل شروط الأمن والسلام، وصارت حديقة حياتهم تزهو بأثمار الدعة والسكون تحت سياسة أميرهم واعتنائه، أعلنوا جميعهم وجوب الطاعة والانقياد له، دافعين قلوبهم إلى محبته، وصاروا يسمون ذواتهم عبيده، ويحامون عن حقوقه وبيته بكل مقدرتهم، وهو كان يضاعف اهتمامه بجميع صوالحهم العامة والخاصة، غير مفتكرٍ إلا في دوام راحتهم، ولا ملتفت إلَّا إلى وقايتهم من كل المزعجات، مسميًا إياهم شعبه وأولاده."[737]

3– <u>السياسة ودعائم التمدن:</u>

أبرز المراش أهمية السياسة لحفظ النظام في المجتمع ومن ثم العمل على تقدمه ورفعته، فيقول المراش في مطلع حديثه عن الدعامة الأولى من دعائم التمدن: "إنه لما كان نظام العالم الإنساني لا يمكن قيامه محفوظًا من كل خلل إلا بسياسته، كانت هذه الشريعة تقتضي تمام الالتفات إلى تهذيبها وتحسينها لكونها محورًا يدور عليه عالم

([736]) غابة الحق ، طبعة هنداوي، ص 39.
([737]) المرجع السابق ، ص 39.

كبير يستحق كل الالتفات إلى نظامه، ولا يوجد لهذا التهذيب أساس آخر سوى توطيد الحق وتحسين الهيئة؛ لأنهما المركز الأول الذي يتوقف عليه مدار السياسة العامة. ومتى طرأ على الأساس خلل ما، لحق ذلك بكل ما بني عليه."[738] ويعتمد تهذيب السياسة كما يذهب المراش على جملة أحوال، هي:

1- حال الشخص الذي يتعاطى السياسة (صفات السياسي)

2- إقامة الحق وأن يكون مجرى الشرائع في الهيئة الاجتماعية متساويا. (سيادة القانون)

3- حالة المطابقة. (توافق غايات السياسة مع غايات المجتمع)

4- حالة المصلحة العامة. ونعرض لكل منها فيما يلي:

أولا : صفات السياسي:

أكد المراش أنه يجب أن يكون من يعمل في مجال السياسة كريم الأصل موسرا، حسن الأخلاق والتربية متجملا بالصفات الحميدة، فتوافر هذه الصفات يضمن صلاح ما يقرره من الأحكام. كما يشترط أن يكون مثقفا متعلما بالعلوم الرياضية والأدبية، عالما بالشرائع وأحكام القوانين، لأنه إذا كان جاهلا بهذه الامور يدفعه جهله بها للاستعانة بالأجانب واستشارتهم وربما يضلونه أو يخونونه. ويكون بذلك عاجزا عن أداء مهمته وواجباته في قيادة المجتمع، وتحقيق مصالحه. وأن يكون عادلا حتى يثبت حكمه ويحظى برضى الناس وتأييدهم، وأن يكون أقرانه (أي: حاشيته وجلساءه) من الأخيار، وأن يكون ممدوحا من الأخيار، ومهابا من الأشرار. كما يجب أن يكون قنوعا حتى يقضى على الفساد والرشوة، أن يكون ذا أناة لأن الأناة هي الأداة الوحيدة لاستقصاء الحقائق من صدور المتداعين حتى تصح الأحكام. وألا يكون سكيرا لأنه لا يوجد طارد للرشد والنباهة أعظم من الخمر، ومتى ذهب رشد الحاكم فسدت الحكومة وبطل الحق. كما يجب أن يكون شجاعا حتى يتخذ ما ينسب من قرارات في وقتها، رزينا غير ممازح لأن من لازم المزاح سخرت منه الناس، واستهجنته، واستقلت بعقله، فلا يعتبر أحد بأحكامه مهما كان حازما.[739]

([738]) فرنسيس فتح الله مراش : غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ،ص 155. وطبعة هنداوي ، ص 47.
([739]) راجع ، فرنسيس مراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص- ص 156 – 158.

ثانيا : سيادة القانون

أكد المراش على أن تهذيب السياسة يتطلب العمل على إقامة الحق وأن يكون مجرى الشرائع في الهيئة الاجتماعية متساويا. وعبر عن ذلك بـ :((حالة الاستواء)) فقال: إن أعظم المقومات لصحة السياسة وإقامة الحق هو أن يكون مجرى شرائعها متساوية على كل أبنائها بدون أدنى امتياز بين الأشخاص أو تفريق بين الأحوال.[740] فيحب ألا يفرق بين الناس في مجال تطبيق الشرائع والقوانين، وأن يخضعوا جميعا لها، ويلتزموا بأحكامها، لأن التفرقة بين الناس في مجال تطبيق القوانين تعجل بتفكك المجتمع، أو كما عبر المراش "بانفراط عقد الجمعية".[741] وهو ما يمثل دعوة لإقرار مبدأ سيادة القانون والمساواة بين الناس أمام القانون.

ثالثا: تطابق غايات السياسة مع غايات المجتمع

تحدث المراش عن وجوب تطابق غايات السياسة وغايات المجتمع، وعبر عنها بـ "حالة المطابقة" فقال: "إن منزلة السياسة من الهيئة الاجتماعية هي كمنزلة الدم من الجسد، فكما أن هذا السائل يقوم بتغذية الجسد وبدونه لا تثبت الحياة، هكذا السياسة تقوم بعول تلك الهيئة، وبدونها لا يثبت النظام(...)هكذا ينبغي أن تكون السياسة مطابقة بقوانينها وشرائعها لما يقتضيه واقع الحال بدون زيادة ولا نقصان، ومتى عدمت تلك المطابقة زاغت الهيئة عن واجباتها واضطرب كل نظامها، وكما أن السائل الدموي يستلزم التنقيص عند زيادته استدراكًا لوقوع الأمراض الالتهابية والزيادة عند نقصانه دفعًا لنهوض العاهات الافتقارية، هكذا يجب أن تعامل الأحكام السياسة في محكوماتها حذرًا من وقوع البلبال؛ فلا يستعمل الصرامة والقساوة والجور والانتقام مكان الرفق والشفقة والحلم والإغضاء، وبالعكس. بل يجب توقيع كلٍّ في محله مطابقًا؛ بحيث إذا زاد أو نقص يجب تعديله لإخلاله بالواجب السياسي. ولما كانت حوادث الهيئة الاجتماعية تختلف جرمًا وموقعًا كان لكلٍّ منها شأن يستوجب حكمًا يلائمه ويطابقه، ولكل حكم قوانين تناسبه وتشاكله. وهكذا تكون الأحكام وقوانينها مختلفة اختلاف الحوادث الجارية، فمتى استعمل الواحد محل الآخر نشأ خلل عظيم في نظام السياسة يستدعي خلل الهيئة جميعها؛ فلا يسوغ تنزيل واجبات الكبائر منزلة واجبات الصغائر، ولا يجوز إيقاع الحوادث العظيمة موقع الحوادث الحقيرة، بل يجب إعطاء كلٍّ حكمه ليستوفي كل حقه. وبما أن الأحكام والقوانين تعتبر كأجزاء تؤلف جسم الشريعة في عالم السياسة، وجب أن يكون كلٌّ من

([740]) أنظر: غابة الحق، طبعة هنداوي ، ص 48 ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 158.
([741]) غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ص 159، طبعة هنداوي، ص 49.

هذه الأجزاء ثابتًا على نقطة وضعه؛ وبناءً على ذلك نرى أنه متى زاغ أحدها عن الوضع المعين له، يقع حالاً في حركة الاضطراب ويستفز البقية إلى مشاركته في تلك الحركة، (...) ثم ولا يستعمل الحرب مكان السلامة ولا السلامة مكان الحرب؛ لأن الواحد يبدد والآخر يجمع، ومتى نزل أحدهما منزلة الآخر تزعزعت أساسات الهيئة".[742]

فقد أكد فرنسيس مراش على ضرورة وضوح السياسة التي يتبعها الحاكم مع ضرورة اتفاقها مع غايات المجتمع، لتكون محققة لآماله، ووسيلة في تحقيق الخير والرخاء لأفراده، وعاملا في تقوية نظم المجتمع .

رابعا: حالة المصلحة العامة

أكد المراش على ضرورة مراعاة المصلحة العامة للمجتمع عند التخطيط للسياسة، فذلك ما يضمن للمجتمع سلامة نظمه ويحقق أمن وسلامة أفراده ويضمن الخير للجميع. وأنه مهما أتقن وضع الخطط السياسية ، فإن إهمال النظر فيما يحقق الصالح العام يعجل بانهيار المجتمع ونظمه ويهدد بالفوضى، حيث يقول المراش: "**إن أهم دواعي السياسة وأعظم بواعثها هو النظر الدائم إلى الصالح العام وتواصل السهر عليه، بحيث مهما أتقنت السياسة نظامها وأحكمته ولم تلتفت إلى هذا الصالح أو تغافلت عنه، فلا تعتبر إلا كمساعد على نثر عقد الهيئة الاجتماعية الذي لا يمكن دوامه منظومًا ما لم تكن الملاحظة السياسة عاصمة له؛ إذ إن إهمال ما يسبب العمار هو تسبيب لوقوع الخراب، وهذه الملاحظة تنحصر جميعها في توقيع ما يَئول نفعه إلى العامة إجمالاً وإفرادًا، ودفع ما يقضي إلى الضرر**".

وتحقيق المصلحة العامة يقوم ويعتمد على خمسة أركان؛ هي: تمهيد سبل العلوم، وتسهيل طرائق التجارة، وتقوية وسائط الصنائع والأشغال، ومساعدة الزراعة والفلاحة، وقطع أسباب التعدي.[743]

1- **تمهيد سبل العلوم:** ويكون بالمساعدة على تشييد المدارس وتسهيل الدخول فيها لأجل كل من يرغب، وترقية الناجحين بالدراسة على قدر الاستحقاق.

2- **تسهيل طرائق التجارة:** وذلك يكون بالعمل على تقريب أبعاد الأسفار بواسطة إصلاح الطرقات. وإزالة مخاوف ومعاثر الطريق وإيقاع الأمان والسهولة. والعمل على وضع حدود ونظامات تجري على كل

([742]) فرنسيس المراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص ، طبعة هنداوي ، ص 49 – 50.
([743]) فرنسيس المراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص ، طبعة هنداوي ، ص 50.

أرباب هذه الحرفة؛ بحيث لا يمكن أحدًا تجاوزُها، رابعًا والعمل أيضا على منع كل الصعوبات التي يمكنها صدم تقدم التجارة وإبطال كل عائق لسيرها.

3- **تقوية وسائط الصنائع والأشغال:** ويكون ذلك بإثارة همم ذوي الاختراعات بتعظيم جوائزهم ورفع شأنهم وتثبيت ما به يمكنهم اقتطاف ثمرات أتعابهم، والعمل على توسيع دوائر الأدوات الصناعية وتضييق مساحة التلف والمصاريف، ورفع كل ما يوقف الخطوات عن الهجوم إلى معاناة الأشغال، والمساعدة في تكثير المعامل وتسهيل مجراها. [744]

4- **مساعدة الزراعة والفلاحة:** برفع الجور عن الفلاح وفتح الطريق للزُّرَّاع، وتعجيل خطوات الحصاد ومنع حشر العشار واحتشاد الخزان، وبملاشاة كل موانع البدار وتسديد جميع مطاليب الأرض.

5- **قطع أسباب التعدي:** ويكون ذلك بالعمل على حماية المتاع، وصيانة الاعتبار، ووقاية الأرواح. [745]

([744]) فرنسيس المراش: غابة الحق ، مكتبة الأسرة ، ص ، طبعة هنداوي ، ص 51

([745]) فرنسيس المراش: غابة الحق ، مكتبة الأسرة ، ص ، طبعة هنداوي ، ص 51

المبحث الثاني

الأخلاق والمحبة

1- تحسين الأخلاق:

أكد المراش على العلاقة بين أخلاق البشر وأسلوب حياتهم والعادات التي يسلكونها في معاشهم وبين درجة ما يصلون إليه من التمدن؛ "**فكلما كانت هذه العوائد والأخلاق جيدة كان تمدن أربابها جيدا أو عاليا، وكلما كانت قبيحة كان قبيحا ودنيئا**".[746] لذلك فإنه يجب على الشعب الذي يطمح في الانتقال إلى حياة التمدن أن يعمل على تحسين عاداته وتجميل أخلاقه حتى يكون تمدنه حقيقيا وليس على سبيل التقليد للأمم المتمدينة فلا يكون ادعاء للتمدن دون أن يظهر ذلك في أخلاق المجتمع وعاداته، ولهذا وجه المراش الأنظار إلى عاملين رئيسيين لتحقيق التمدن الحقيقي الذي يجد أساسه وأثره في عادات الناس وتقاليدهم، ويتمثل العامل الأول في حسن التربية، ويتمثل العامل الثاني في التعليم المستمر.

فقد أكد المراش على أهمية تربية النشء منذ نعومة أظافرهم على الأخلاق الحسنة ونبذ الأخلاق الرديئة السيئة التي لا تتناسب مع أخلاق التمدن، وقد أشار المراش إلى العديد من العادات الأخلاق السيئة التي تتعارض مع أخلاق التمدن، منها السكر والنهم والفجور والكذب والنميمة والعضب والجبن. فالتمدن لا يتفق مع **عادة السكر**، لأنها تفضي إلى اضعاف العقل وتعد سبب الكثير من الأمراض. كما نهى عن **النهم** لأنها تطبع الانسان بأخلاق البهائم. كما نهى عن **الفجور** لأنها لا تتناسب ولا تتفق مع التمدن لأن التمدن يستلزم الطهارة والعفة، أما هذه العادة فإنها تبغي الشراسة والحمق، والتمدن يتطلب الاستحياء والأدب، وهذه تقتضي الوقاحة. كما أكد على أن التمدن لا يتفق مع **الكذب** لأن ذاك يطلب الاستقامة والحقيقة، وهذا يقتضي الاعوجاج والتزوير والخيانة والنكث والخديعة والغش ويجعل الانسان مهانًا مبغوضًا. والتمدن يستلزم الأمانة والثقة، والنصيحة ويجعل الإنسان مكرمًا محبوبًا. ولا يتفق التمدُّن مع عادة **النميمة**؛ لأن ذاك ينادي بقبح الكشف عن الأعمال السرية للبشر، وهذه تصرخ بإعلانها لدى الآفاق. [747]

([746]) فرنسيس مراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 172 ، طبعة هنداوي ، ص 55.

([747]) غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 172 – 175 ، طبعة هنداوي ، ص 55- 56.

كما أن التمدن لا يتفق مع خلق **الغضب**، فهو يطلب الهدوء والتأني في الأمور ويطلب وإرضاء الناس واستمالتهم كما يقتضي البشاشة والطلاقة ، أما الغضب فإنه يطلب الضوضاء والعجلة ويستلزم الوجوم والقنوط.[748]

كما لا يتفق التمدن مع **الجبن**، فالتمدن يطلب الثبات والصبر على الأهوال والمصايب، ويقتضي الإقدام على تشتيت المخاوف والمزعجات، أما الجبن فإنه يطلب التقلقل لدى كل حادثة. ويقتضي الفرار من كل شيء. فجميع هذه الأخلاق والعادات الرديئة لا تتفق مع أخلاق وقوانين التمدن ومن ثم يجب – حسب قول المراش[749]– استئصالها من الناس وتربيتهم على أضدادها ولو كان في الأمر مشقة وتطلب كثير جهد.

وأبرز المراش أثر التعليم في النفوس وقدر تأثيره في البشر ونقلهم من حياة التوحش إلى المدنية، لأن التعليم يدفع لاستخدام العقل وتحكيمه في التصرفات ويعمل على تهذيب الميول. ووجه المراش دعوة صريحة لتعليم النساء حتى تتفق أخلاقهم وطباعهم مع أخلاق التمدن فقال المراش:

"لا يعتبر أولئك المدَّعون بالتمدن إذا كانت بيوتهم مشحونة بالأثاث العقيم كالفضة والنُّحاس وأنواع الخزف والأقمشة، ولم يوجد فيها كتاب أو مُياومة ولا أدنى آلة للعلم. لكنَّ ما اعتبارهم يقوم إذا كانوا يعلمون أن زينة العقل تفوق زينة المسكن، وأن هذه نتيجة الأجيال المظلمة التي كانت تنطبق على الفخفخات والعظمات الفارغة، وتلك نتيجة الجيل المتنوِّر الذي لا يقبل ما لا نفع فيه. ولا تُعتدُّ بهؤلاء المتظاهرين بالتمدُّن إذا كانت رءوس نسائهم تتشعشع بأنوار الأحجار الكريمة ذات الثمن الوافر والعديمة الثمرة، ولم يكن في تلك الرءوس أدنى شعاع للعقل والآداب، بل يُعتدُّ بهم إذا رفعوا جميع تلك الظواهر الخيالية وأثبتوها للنفقة على تعليم نسائهم وتهذيبهن، كما أنهم لا يعتبرون أصلاً مهما ضيقوا أثوابهم وأطالوا خيزراناتهم وهرولوا مسرعين إذا لم يوسعوا أفكارهم ويقيدوا جماح أميالهم المنحرفة"[750].

وانتهى المراش إلى وضع قاعدة عامة تحكم هذه المسألة فقال:

([748]) غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 176 ، طبعة هنداوي ، ص 56.
([749]) غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 176 ، طبعة هنداوي ، ص 57.
([750]) فرنسيس مراش: غابة الحق، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 177 - 178، طبعة هنداوي، ص 57.

"إنه لا يمكن للتمدن أن يقبل في نظامه أي عادة قبيحة، أو خلق ردئ، ولا يقدر أحد على الدخول تحت ألويته ما لم يحسن عاداته وأخلاقه".[751]

2- إشاعة المحبة :

أكد المراش على أن المحبة هي أهم دعائم التمدن وبدونها لا يثبت له بناء.[752] فبدون المحبة بين البشر المطبوعين على فطرة الله لا يمكن قيام نظامهم الاجتماعي على الوجه المطلوب؛ إذ إن المحبة هي القوة الوحيدة للتأليف بين أفرادهم المتفرقة على وجه الأرض، والضابط الأول لنظام عالم تمدُّنهم، بخلاف البعض الذي ينزل منزلة القوة الدافعة بين الأجسام فيبعدهم عن بعضهم ويشتت شمل هيئتهم ويسلبهم راحة الحياة المحبوبة لهم.[753] ولهذا أشار المراش إلى أن البعض اعتبر المحبة هي إلهة الهيئة الاجتماعية فقال : **"فلا يخطئ من يسمِّي المحبة إلهة الهيئة الاجتماعية بِناءً على ما يصدر عنها من المفاعيل الغريبة والتأثيرات العجيبة بين البشر، فلو أقيم لها وثن في هيكل الذهن لكان على شكل غادةٍ كلها جميلة وليس فيها معاب".[754] ... فلا يسمح التمدن بالدخول تحت لوائه لأحد ما لم ينصب في هيكل قلبه تمثال المحبة مقدمًا بخور الأفكار الطيبة والعواطف الجيدة وصارخًا بلسان الروح هكذا: ها هنا يجلس التمدن على عرش الكمال فتتخذق أمامه بيارق الخشونة ويمزق التوحش ثوبه.[755]**

إن التمدن لا يستغني عن هذه الدعامة أصلاً (دعامة المحبة)، ولا يمكن ثباته بدونها كما لا يمكن وقوف قناطر الهيئة إلا عليها[756] 0

([751]) فرنسيس مراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 183 ، طبعة هنداوي، ص 59.
([752]) فرنسيس مراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 189 ، طبعة هنداوي ، ص 62.
([753]) فرنسيس مراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 191 ، طبعة هنداوي ، ص 63.
([754]) ذات الإشارة السابقة.
([755]) فرنسيس مراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 193 ، طبعة هنداوي ، ص 64.
([756]) فرنسيس مراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 194 ، طبعة هنداوي ، ص 64.

3- حدود المحبة:

أكد المراش على أنه يجب أن يكون هناك حد للمحبة لا تتجاوزه لئلا تجانس ضدها في النتائج القبيحة، على أنه ولو كانت المحبة تحسب روح الانتظام البشري وحياته، لكن يوجد للإفراط فيها كثير من النتائج المضرة؛ وذلك كمعارضة السلامة مثلاً لمشروعات الحرب حيثما تكون هذه المشروعات واجبة لإصلاح حالة ما أدبية. وكالمعاملة بالشفقة إذ تكون الصرامة واجبة.[757]

فينبغي استعمال المحبة إذن على قدر الواجب وحسب الظروف التي تدعو إليها بدون زيادة ولا نقصان، أما ترى كيف أن الرئتين اللتين هما عضوا التنفُّس لا يتناولان من الهواء الذي به تقوم الحياة إلا ما يكفي لقيام هذه الحياة وما لا يؤثر عليهما ضررًا بحيث لو عرضتا بأجمعهما إليه لفتك بهما وبكل الأعضاء عمومًا؛ فلمنع هذا الفتك الشديد تحفظتا منه ضمن حجاب متين وأخذتا تفتكان به رويدًا رويدًا. فهكذا كل إنسان يجب عليه اعتناق المحبة عامة وخاصة وتحريكها حسب الاقتضاء بدون تسليم ذاته لجميع قوَّ اتها حذرًا من فتكها به وتمزيقها جلباب راحته؛ وبذلك تقوم هذه الدعامة الخامسة للتمدُّن أو السلك الذي به تنضم فرائد البشر بعضهم إلى بعض.[758]

([757]) الإشارة السابقة.

([758]) فرنسيس مراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 204 ، طبعة هنداوي ، ص 68.

المبحث الثالث

سبل اصلاح المدينة

اهتم المراش بالتأكيد على الجانب الصحي في المدينة وشدد على ضرورة الاهتمام بإصلاح أحوال المدينة، وأكد على أن أول شيء يُستدل به على تمدن أمة ما أو توحُّشها هو النظر إلى حالة مدينتها، فكلما كانت المدينة صحيحة كان التمدن صحيحًا، وكلما كانت سقيمة كان سقيمًا.[759] ويتحقق اصلاح المدينة – عند المراش– بالاهتمام بثلاثة أمور هي: النظافة ، وتمهيد الطرق الشوارع والأزقة ، وترميم الأبنية.

أولا : النظافة والحفاظ على الطبيعة (البيئة):

عند الحديث عن أهمة النظافة في صحة المدينة نجد البعد البيئي حاضرا لدى المراش، فهو يؤكد أنه يجب على كل شعب داخل في طريق التمدن أن يهتم بالنظافة سواء نظافة المنازل أم الأسواق، ويعلل ذلك قائلا :"**لأن المراد من ذلك ليس نوال الغاية الأدبية وحدها، بل الغاية الطبيعية أيضًا وهي إراحة الطبيعة الحيوية ممَّا يقلق نظامها ويزعج وظائفها، ولا يوجد خطْب أشدُّ تأثيرًا على هذه الطبيعة من دخول المواد الغريبة عنها إليها لا سيما إذا كانت مفسودة.**"[760]

ويؤكد على أن الطبيعة تحتاج للحفاظ عليها منعا لانتشار الأوبئة والأمراض، فيقول: "**كم تقاسي الطبيعة من الاضطرابات المرضية المميتة؟ وكم تلتمس الإنقاذ بلسان حال الانزعاج الوظائفي عندما تمازجها هذه المواد الغريبة؟ فهي السبب الأعظم لتهييج الحميات الخبيثة كأنواع التيفوس والتيفوئد، كما أنها سبب قوي لتمهيد طريق الوافدات الوبائية المهلكة كأنواع الطاعون والهواء الهندي . وبالإجمال نقول: إن الغاية الوحيدة للطبيعة هي قبول ما يناسبها لقيام حياتها ودفع ما يستنزل عليها صاعقة الموت بمغايرته لها ولو كان صادرًا عن ذات فعلها. ألا ترى كيف أنها تجتهد في طرد التراكيب الصديدية التابعة لالتهاب ما عضويّ إلى الخارج بواسطة النفث أو الغائط أو الاستطراق من المركز الانفعالي إلى بعض جهات المحيط البدني، حتى إذا لم يمكنها تتميم هذه العملية ودخل الصديد الفاسد إلى التيار الدموي ألقى عليها رعدة الاضطراب بإفساد جميع كتلة الدم وأماتها بعد نزاع شديد. فإذا كانت الطبيعة لا تقبل ما يغرب عنها ولو كان آخذًا صدوره من ذات**

([759]) فرنسيس مراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 183 ، طبعة هنداوي ، ص 60.
([760]) فرنسيس مراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 183 ، طبعة هنداوي ، ص 60.

أجزائها لعدم نفعه لها، فكيف تقبل ما يكون غريبًا وأجنبيًا معًا، ومن حيث إن الأقذار والأوساخ لها أشد الأفعال السمية كما سبق. فلا يسوغ — والحالة هذه — تغافُل أرباب التمدن عن ملاشاتها، ويجب الاعتناء الوافر بحفظ النظافة العامة للأسواق والشوارع، والخاصة للبيوت والمساكن فرارًا من تلك التأثيرات الرديئة مراعاةً لحق المدينة". [761]

ثانيا: تمهيد الطرق والشوارع والأزقة:

جعل المراش الاهتمام بتمهيد الطرق والشوارع والأزقة مما يدل على المدنية لهذا دعا الداخلين في التمدن الاهتمام بها، سواء للحفاظ على البيئة وليسهل امتداد الهواء والنور إلى مخادع الناس أو حوانيتهم؛ بما يحميهم من الآفات الليمفاوية والدرنية كالسرطان والخنازير والسل والأورام الباردة وعيرها من الأمراض .

ولأنه إذا كان الطريق معوجًا فإنه يعسر انطلاق خطوات الناس فتتعثر أرجلهم وتتلاطم صدورهم وتتقارع جباههم؛ وحينئذٍ يكون السير في الزقاق عراكًا لا انتقالاً ، وإذا كان وعرًا مستويًا فإنه يصدع أقدام الماشين ويسبب سقطات البهائم تحت أحمالها الثقيلة؛ فتتهشم حوافرها وتتكسر أرساغها، وذلك ينافي ما تطلبه الشفقة على البهائم التي لا نطق لها لتشكو مصابها وتندب عذابها، هذا ما خلا المؤيدات التي يجدها الشتاء هناك لأن يصنع بحيرات من الأوحال والأطيان بحيث يعود الناس ملتزمين لقوارب يخوضون بها ولا يبقى سبيل لسلوك العميان.[762]

ثالثا : ترميم الأبنية:

ذكر المراش أنه مما يدل على تمدن المدينة أو خشونتها هو ملاحظة أمر أبنيتها؛ ولذلك يقتضي لقاصدي التمدن وُفور الاهتمام في إصلاح شأن الأبنية والمشيدات، وهذا يتوقف على فحصها كل مدة لاستعمال حالة متانتها وثباتها فرارًا من حدوث الأخطار؛ لأنه متى ترك الناس جسرًا لعبور السنين بدون ملاحظة أمره أحدثت فيه طول الزمان تقلقلاً ووهنًا فيعود خطر هبوطه قريبًا، وخصوصًا في أيام الشتاء عندما يصبح عُرضة لصدم الرياح واندفاق الأمطار فإن سقوطه إذ ذاك يكون عظيمًا. ولما كان تعرض الناس إلى اقتبال هذا الخطر كثيرًا

([761]) غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 184 - 185، طبعة هنداوي ، ص 60.
([762])فرنسيس مراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 186 ، طبعة هنداوي ، ص 61.

وجب على جميعهم تواصل التدقيق على حالة الأبنية من الداخل والخارج لكي يمنعوا بذلك أخطارًا عظيمة تتهددهم على ممر الدقائق ويدخلوا إلى منازلهم بسلام آمنين. [763]

وبعد استعراضنا لأسس المدينة الفاضلة لدى المراش نلاحظ : أن المراش – وفقا لكتابه غابة الحق – لم يقم بتقسيم المجتمع إلى طبقات، بل اهتم بإقرار القيم ونشر المحبة والتعاون بين جميع سكان المدينة. وهو بهذا قد تلافى النقد الموجه لأفلاطون الذي قسم مجتمع مدينته الفاضلة إلى طبقات جامدة استنادا إلى اسطورة المعادن التي تحمل أسس التفرقة بين الناس وتعدم مبدأ المساواة في المجتمع وتؤسس لإقرار الطبقية والعنصرية. ولا يعني ذلك أن الطبقية بعيدة عن فكر المراش ، إذ أننا نجد لها مكانا بارزا في كتاباته الأخرى، فقد تناول – في مقال له نشر في سنة 1870 بعنوان "العالم البشري"[764] – تقسيم المجتمع لطبقات ثلاث هي: طبقة الشعب العالي، وطبقة الشعب الواطي ، وطبقة الشعب المتوسط. وحدد علاقات هذه الطبقات مع بعضها، فالطبقة العالية تعتمد في شئون حياتها الضرورية وفي تحقيق طموحاتها وأطماعها على الطبقتين الأخيرتين: **"فكما أن الدعائم تقوم علي الأساس متطورة عليه، وتحمل أثقال القناطر، هكذا طبقة الشعب المتوسط تقوم على طبقة الشعب الواطي، راسخة على أتعابه ودواعي حاجته، وتحمل أثقال طبقة الشعب العالي، إن يكن من حركة حياته المتعدية أو من جهة بواعث حياته اللازمة"**[765]

فقسم المراش المجتمع لثلاث طبقات، مثلها مثل هيكل جميل البنيان منقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الأساس (طبقة الشعب الواطي) أو الطبقة الدنيا. [766]

والقسم الثاني : الدعائم (طبقة الشع المتوسط) أو الطبقة الوسطى.

والقسم الثالث: القناطر (طبقة الشعب العالي) أو الطبقة العليا.

([763]) فرنسيس مراش: غابة الحق ، طبعة مكتبة الأسرة ، ص 187 ، طبعة هنداوي ، ص 61.

([764]) فرنسيس مراش : [العالم البشري] مقال نشر بمجلة الزهرة في بيروت سنة 1870. مشار إليه لدى : على أحمد حسين الشرع: المرجع السابق، ص 71 وما بعدها.

([765]) نقلا عن : على الشرع : المرجع السابق، ص 71- 72.

([766]) وصف المراش هذه الطبقة في مقاله المذكور بالمتن ، قائلا : "كما أن الأساس يقوم علي حجارة يدعوها العامة بالخردقة أو الركة، أي قطع لا تناسب فيها ولا تهذيب ولا صقال، مجموعة مما لا يصلح أو لا عاد يصلح، لدخوله في البناء الظاهر ، هكذا طبقة الشعب الواطي فهي قائمة من جماعة رعاع الناس وأوباشهم وسقطهم ، أي من الذين أسقطهم نقص التربية والتهذيب." نقلا عن ، علي الشرع: المرجع السابق، ص 72.

فإذا استوعبنا هذا الشبه بين المشبه والمشبه به، فكما أن القناطر تقوم علي حجارة جميلة ذات تناسب واحكام، هكذا طبقة الشعب العالي يجب أن تقوم من اشخاص ذوي تهذيب وتأديب وثروة.[767] ولهذا اهتم بصفات السياسي في نظم مدينته الفاضلة. وأهمل فكرة الطبقية. لقيام مجتمع مدينته الفاضل على أسس تثقيف العقل وتهذيب الأخلاق ، وإشاعة المحبة وإصلاح شئون المدينة. ومن ثم كان منطقيا ألا يتطرق – في غابة الحق– لفكرة تقسيم المجتمع إلى طبقات أو فئات، وذلك لأن الدعوة الرئيسية التي يوجهها المراش في روايته هي ضرورة تحقيق المساواة الحقيقية بين أفراد المجتمع وأطيافه، وألا يتم التفرقة بينهم، وامتدت دعوته لتأييد جهود تحرير العبيد، فكان عدم تطرق المراش لتكوين المجتمع أمر يتفق مع هدفه ورسالته.

([767]) أنظر ، علي الشرع: المرجع السابق، ص 72.

الخاتمة

كان حلم التمدن والحرية من الافكار التي سيطرت على عقول المنورين العرب في القرن التاسع عشر، بتأثير أفكار الحداثة الأوربية التي انتشرت وشاعت عقب الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر، وبتأثير أفكار الحرية وتحرير العبيد التي وجدت اهتماما كبيرا في القرن التاسع عشر وتوجت بقرار تحرير العبيد الذي أنهى الثورة الأمريكية في ذات العام الذي أصدر فيه فرنسيس المراش روايته غابة الحق، واتخذ من الحلم وسيلة لعرض أسباب تخلف مجتمعه العربي، وليقدم روشتة علاج أو خطة لإصلاح الواقع العربي المتردي، ولتحديث نظم المجتمع العربي خاصة وأن جهود محمد علي باشا في مصر كانت ظاهرة لكل مهتم بالمدنية ويبحث عن وسائل إقرارها في الشرق.

وقد اختلف أسلوب التنوير الذي انتهجه فرنسيس المراش عن الأسلوب الذي انتهجه بعض أعلام التنوير العرب في القرن التاسع عشر مثل رفاعة الطهطاوي، ومركز الاختلاف أن المراش فضل أن يحلم – بخلاف رفاعة الطهطاوي – الذي انتهج نهج أغلب المنورين العرب في تلك المرحلة– الذي رفع راية التربية والتثقيف واتخذ من صهوة الترجمة وسيلة تعينه على غرس قيم التمدن في الأجيال العربية – وأن تتجلى في حلمه قريحته العربية فأبدع بأسلوب سهل بسيط، وعبر بالرمز – الذي يتجلى في صورة قيم (العدل – المساواة – الحرية – التمدن...الخ)– عن وسائل تحقيق التمدن الحقيقي لا التمدن الشكلي الذي لجأت إليه الدولة العثمانية. وصاغ المراش في حلمه دولة مدنية تقوم على القيم الفاضلة، فكان وكأنه يصوغ نظام لمدينة فاضلة تشبه مدينة أفلاطون أو مدينة الفارابي. ولكنها مع ذلك تتفوق علي مدينة أفلاطون بتأسيسها على قيم مثاليه وبعدها عن الأساطير المؤسسة لفكرة الطبقية.

فقد طرح المراش في غابة الحق تصور لمدينته الفاضلة، وقدم نموذجا يختلف عن النماذج السابقة للمدن الفاضلة التي قال بها الفلاسفة. فالقارئ لرواية غابة الحق يتنبه لنوع خاص من اليوتوبيا، أسسه المراش على أسس التمدن الحديث، الذي ساد في البلدان الغربية، خاصة في أمريكا ذلك النموذج الذي أنبهر به خاصة بعد انتهاء الحرب الأمريكية ونجاح دعوة تحرير العبيد وانتشارها في المجتمعات المتحضرة.

فكانت فكرة المساواة أو فكرة تحرير العبيد هي المسيطرة على الرواية، ولهذا عقد المراش مقارنة بين أسباب الانحطاط وتخلف المدنية في الشرق(خاصة في تركيا مقر الخلافة العثمانية)، عما شاهده من أسس المدنية وتقدمها في بلاد الغرب التي زارها أو تلك التي قرأ عنها.

وميز بين مملكتين الأولى هي مملكة الحرية التي تماثل نموذج مدينته الفاضلة وتتأسس على دعائم التمدن الحديث التي ذكرها المراش وعدها بخمس هي: تهذيب السياسة وتثقيف العقل وتحسين العادات والأخلاق وإصلاح المدينة وإشاعة المحبة.

والمملكة الثانية هي مملكة العبودية التي تنتمي لعالم التوحش وتسود فيها أرزل العادات وأسوأ الأخلاق .

وهو بهذه المقابلة يقدم للمجتمع والحكومة العثمانية خطة علاج للمشاكل التي تفشت في المجتمع العربي خاصة في حلب التي عاش فيها وتفتح عقله وذهنه على علاته ومشكلاته، فرأى قدر التمييز والطائفية وأثرها في تفكك عرى المجتمع وهوان بعضه على بعضه، وكثرة الفتن والاضطرابات. وهو ما حاول المراش علاجه فقال بأن المحبة هي أهم دعائم التمدن الحديث، كما أن اهتمام الحكومة بتعليم الناس وتربية الأطفال وتثقيف العقول، وتحسين العادات والأخلاق وإصلاح أحوال المدن وتعبيد الطرق، يؤدي إلى انتقال المجتمع من حالة الاضطراب والفوضى والاقتتال الطائفي إلى حالة التمدن التي يتمتع في ظلها الجميع بذات الحقوق وينعم الكل بالسلام والأمان، وذلك ما يكفل للإنسان أن يعيش حياة فاضلة.

"هذا والحمد لله الذي وفقنا لما ارتضاه لنا"

المراجع

1) أنور عبدالملك: نهضة مصر – تكون الفكر والأيديولوجية في نهضة مصر الوطنية (1805 – 1892) ، ترجمة : د/ حمادة إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة 2013 .

2) جابر عصفور : تقديمه لرواية غابة الحق لمؤلفها : فرنسيس فتح الله مراش ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة مكتبة الأسرة 2000 .

3) جابر عصفور: من أعلام التنوير، مكتبة الأسرة ومهرجان القراءة للجميع، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1995 ،

4) جمال باروت: حركة التنوير العربية في القرن التاسع عشر، حلقت حلب، دراسة ومختارات، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق، 1994.

5) خليل المرسي : تجليات الفضاء التنويري في ادب فرنسيس المراش، بحث منشور مجلة جامعة دمشق ، المجلد 26 – العددان الثالث والرابع 2010 ،

6) عادل النفاتي: نظام الحكم الفرنسي من منظور رواد النهضة العربية، مجلة انثروبولوجيا ، العدد الرابع.

7) عبدالمالك خلف التميمي : الحداثة والتحديث في دول الخليج العربية منذ منتصف القرن العشرين، عالم المعرفة ، الكويت ديسمبر 2018.

8) علي أحمد حسين الشرع: فرنسيس فتح الله مراش ودوه في النهضة العربية الحديثة، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – الجامعة الأردنية،1976 ،

9) عمر الدسوقي: اخوان الصفا، دار إحياء الكتب العربية، دون سنة

10) فرانسيس فتح الله مراش: غابة الحق، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة 2012.

11) فرنسيس فتح الله مراش : غابة الحق ، تقديم ودراسة : د. جابر عصفور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة مكتبة الأسرة 2000.

12) فرنسيس مراش : [العالم البشري] مقال نشر بمجلة الزهرة في بيروت سنة 1870.

13) فؤاد معصوم : اخوان الصفا، فلسفتهم وغايتهم، دار المدى ، الطبعة الأولى ، سوريا 1998 .

14) كامل العزي : نهر الذهب في تاريخ حلب ، الطبعة الأولى المطبعة المارونية ، حلب 1922.

15) لويس شيخو: الآداب العربية في القرن التاسع عشر، المطبعة الكاثوليكية ، دون سنة.

16) مارون عبود : رواد النهضة الحديثة ، دار الثقافة بيروت ،دون سنة.

17) مالك صقور : غابة الحق ، مقال منشور بمجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب، مج 45 / ع538 ، فبراير 2016 .

18) محسن عبدالعزيز: ليل الخلافة العثمانية الطويل، سيرة القتل المنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 2022.

19) محمد فريد حجاب: الفلسفة السياسية عند إخوان الصفا، تقديم د. عزالدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1982.

20) محمود إسماعيل : إخوان الصفا رواد التنوير في الفكر العربي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ،1998

21) مصطفي سيد أحمد صقر : نظرية الدولة عند الفارابي، دراسة تحليلية تأصيلية لفلسفة الفارابي السياسية، مكتبة الجلاء الجديدة ، المنصورة، 1989 .

22) وليد نويهض : إشكالية الفكر العربي في القرن التاسع عشر، مقال منشور بموقع مجلة الوسط أونلاين ، العدد 1715 – الخميس 17 مايو 2007م الموافق 29 ربيع الثاني 1428هـ ، رابط " http://www.alwasatnews.com/news/232476.html